وقعة الباب العلا

© مركز الأدب العربي للنشر والتوزيع، ١٤٤٤هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

المكرمي، إبراهيم حسين
وقعة الباب العلا. / إبراهيم حسين المكرمي - ط١ - الدمام، ١٤٤٤هـ
١٩٢ ص؛ ١٤ سم
ردمك: ٧ - ١٣ - ٧٣٩١ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١ - القصص العربية - السعودية أ. العنوان
ديوي ٨١٣،٠٣٩٥٣١ ١٤٤٤/٢٤٠٠

رقم الإيداع: ١٤٤٤/ ٢٤٠٠
ردمك: ٧ - ١٣ - ٧٣٩١ - ٦٠٣ - ٩٧٨

مركز الأدب العربي للنشر و التوزيع

الموقع الإلكتروني :
Www.Adab-Book.Com
مركز الأدب العربي
@Services_Book
@ServicesBook1
مركز الأدب العربي
adabarabic7
services_book@outlook.sa

مسؤول النشر :
للتواصل
0597777444

المملكة العربية السعودية- الدمام
لطلب إصدارات مركز الأدب العربي
00966594447441

دولة الإمارات العربية المتحدة مكتبة الأدب العربي 00971569767989

جمهورية مصر العربية مركز الأدب العربي 00201120102172

الحقوق محفوظة : لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه ، أو تخزينه في نطاق استعادة جميع المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال بدون إذن سابق من الناشر .

جميع العبارات و الأفكار الواردة في الكتاب تعبّر عن وجهة نظر المؤلف دون أدنى مسؤولية على الناشر .

وقعة الباب العلا

إبراهيم المكرمي

١٤٤٤هـ ـ ٢٠٢٢م

لأبنائي حسين ووسن وراشد

أسف لأني لم أكن ذلك الأب الذي تمنيتموه ..

هذه الرواية من نسج الخيال، وأي
تشابه في وقائعها هو محض مصادفة
ومجرد عن أي قصد..

الوسواس

لم أكن بحاجة لأن أصل إلى نهاية عقدي الثاني، لأتحمّل كلّ تلك التكاليف المتراكمة، أو لتتعوّد قدماي على تلك الأماكن، هل يا ترى أصبح الروتين مهرباً؟ وبالرغم من منشئي القويم إلّا أنّ المطاف انتهى بي مندثراً في مهجع للسجناء.

فناء واسع محاط بأسوار مرتفعة أرتشف فيه مشروبي الخاصّ الذي يطفح بالكافيين أثناء فترة التنفّس في فترة بعد الظهيرة، هناك أشياء قد لا نتقبّلها كهذا المكان الرثّ، وتلك الوجوه الجالبة البؤس التي تحيط بك ولكنّنا نفعلها رغماً عنّا، لنبقى في اليقظة الضروريّة، يقظة النسيان، لأن نكون بكامل قوانا العقليّة لنحكم على ماضٍ ما بالنسيان، أو محاولة ذلك.

يقبل نحوي أحد رجال السجن ويمدّ يده، ويناولني ورقة مطويّة ويبدو من طريقة تقديمها أنّها رسالة من أحد ما، وقال: يمكنك إرسال الردّ معي فقلت في نفسي: ما مدى نفوذ هذا المُرسِل الذي استطاع إدخال الرسالة إليّ داخل جدران السجن؟

ما أن هممتُ بفتحها حتّى اقترب منّي أحد السجناء الجدد وكان

رجلاً أربعينيّاً غزا الشيب فوديه، وغالباً ما نصادف في حياتنا غرباء نتجاذب معهم الحديث والتساؤلات.

نتحدّث كما لو أنّه لا سقف فوق رؤوسنا، نضع عليه لمساتنا الخاصّة، ومن ثمّ أسحبه لمستنقعي الخاصّ، يبدو أنّنا جيّدون في افتعال الأحاديث.

أشرح له مسيرتي المتواضعة التي لا تتعدّى بضعة كيلو مترات في الحياة، فكلّ ما مررت به لم يتعدّ بضع مدن كانت كفيلة بألّا أفكّر في النظر لأيّ جانب آخر من هذا العالم.

بالطبع عمر العشرين في هذا الزمن ليس بالمسافة البسيطة التي من الممكن أن تقطعها في أيّ حقبة بشريّة أخرى، ففي الجاهليّة مثلاً كان الرجال يصلون إلى مرحلة السأم في عمر الثمانين، أمّا في العصر الحجريّ فكان عمر الإنسان لا يقاس بالزمن، إنّما بعدد المرّات التي استطاع فيها النجاة من موت مؤكّد، ليس معي طبعاً، فكلّ مسافة زمنيّة يقطعها غيري، هي بالنسبة لي سنة ضوئيّة.

أبدأ بوصف ما مررت به على هيئة معاناة شاقّة كنت قد تكبّدت كلّ شبر فيها، أقلّل من حدّة صوتي كالأفعى وبكلّ أريحيّة أسرد له المعاناة التي واجهتها، لأتجنّب المراوغة وأمشي في هذا الحديث بخطّ مستقيم، سيبدو له أنّ الأمر مباشر، وأنّني أتجاوز كلّ معايير الشفافيّة، كلّما مشينا في سلم الحديث بشكل تنازليّ رفعت له من

حدّة صوتي مرّة أخرى؛ عندما أشعر بأنّني فقدت السيطرة على المشهد التراجيديّ.

عندما أشعر بأن الضحيّة بدأت في الخروج عن المسار الذي رسمته لها، أواصل سحري له بالحديث عن أشياء تدعو للشفقة، أُحكِمها جيّداً لأغلق منافذها حتّى تبدو منطقيّة أكثر خالية من الفراغات فلا يتسنّى لعقله أن يملأها بالأسئلة، أو أن تستشعر حواسّه المنصتة هذه الفراغات، فليس هنالك ما هو أجمل من تعاطف الناس، ليس الناس جميعهم بطبيعة الحال، بل الغرباء منهم طبعاً، أو أولئك الذين لا يعرفون عن ماضيك شيئاً.

وبعد مدّة طويلة من المشهد وحركات اليد والتأثيرات سيخبرني بعد ذلك الوقت الطويل بهذه النصيحة المتوقّعة، والتي قد اعتدت في صغري على فهم أشياء تشبهها، فالإنسان في مواقف كهذه يحبّ أن يبدو في مكان الناصح، العارف لكلّ شيء، تراه يعتقد أنّ هذه النصيحة ستغيّر من واقع الحال.

لم آخذ من مشروبي سوى رشفة واحدة، أبخرت شفتي مطبوعة على الكوب النحاسي الصدأ ، أكره الأشياء العبقريّة وفي مقدّمتها القهوة، فجزيئاتها السائلة شبه متماسكة، تحدث أشكالاً بعد فراغنا من شربها، ليأتي دور الدجل في قراءتها، ذهبت بي طبعة شفتي إلى مكان بعيد.

أنظر لعينيِ الغريب المتأهّب للانطلاقة كواعظ، ثم أتّخذُ دور المتفاجئ الذي وجد ضالّته، يا لكلّ ذلك العبث، يقول لي: لا تكن كما أنت.

وكمصمّمي الأزياء ينظر إلى الشقّ الأيمن والأيسر من وجهي العريض، هنالك بعض الرتوش التي يجب أن تضفي لشخصيّتك شيئاً ما، وأنا أوزّع الضحكات الساخرة داخل صدري، إنّها ضريبة أن تبدأ حديثك مع أحدهم بالتعاطف.

ينتظر لبرهة من الثانية كمحاولة لأن يجد عقله مخرجاً للكلمة الأولى

- اسمعني طبّق ما سأقوله لك وسترى الفرق.

الأفضل ألّا تسير وحيداً حتّى في أكثر الأيّام سطوعاً وإشراقاً، حتّى وإن كانت كلّ تلك الأيام لك ولا شيء منها عليك، وإن حدث ذلك وحاصرتك الظروف وبدا أنك وحيدٌ فأحدثْ ضجّة، ضجّة الجماعة حتّى و إن لم تنتمِ يوماً، فقط أحدثها وامضِ.

طعّم عباراتك بالحدّة واشحنها بالصرامة، صعّد من خطاباتك وكأنّ عشرة من الأشخاص يتكلّمون معك بنفس واحدة، ضاعف خطواتك في المشي وزد من قوة وقعها على الأرض، تحدّث عن مواقفك الشخصيّة بصيغة جمعيّة، وكأنّ كثيراً من الرفاق ينتظرونك في آخر الطريق.

كن مجنّداً سينهي حياته ذات يومٍ بلا سبب فقط من أجل جماعته.

كن تافهاً، تافهاً وذكيّاً للغاية، تافهاً يعلم جيّداً بأنّ كلّ ذلك ليس إلّا أسلوب حياة محضاً.

وابقَ مع الجماعة وإيّاك أن يرهقك المسير معهم، وليس بالضرورة أن تكون بالفعل مع جماعة، ولكن يجب أن تجعل الآخرين يشعرون بأنّك لست وحيداً.

نهِج الغريب ثم حرك رأسه يحاول أن يركل كل ما قاله داخل رأسه، وكأنّه لم يكن متيقّناً من أنّني استوعبت كلّ ما قاله:

- الجماعة قوّة لا تتخيّلها إطلاقاً، فحتّى وإن كنت هزيلاً فإنّها ستمنحك العضلات وتطلق العنان للسانك الإسفنجيّ فيتحوّل إلى سليط وأداة حادّة للقتال، ستسمع صدى ضحكاتك تدوي في كلّ جهة، إنّها القيمة التي يتمنّاها أيّ شخص في هذه الحياة.

نحن بلا الجماعة حيوانات ناطقة، سترفضك قوّة الطبيعة كما لو أنّك لم تُخلق.

إنّ البشريّة عرفت هذا اللغز منذ زمن بعيد، بعد أن كانت الوحوش الضارية تجعل من موت الإنسان شيئاً روتينيّاً، شيئاً يبدأ كالشهيق وينتهي بسرعة الزفير، تماماً كما لو أنك تركل بإحدى قدميك كائناً لا يُرى بالعين المجرّدة وتمضي كما لو أنّ

شيئاً لم يتغيّر في هذه الحياة، فلا شكّ بأنّ ذلك الإنسان الذي اقترح أن تُمضيَ البشريّة أيامها كجماعات قّدم لها خدمةً جليلةً، لا تكن مميّزاً أرجوك، ولا متفرّداً فنحن خُلقنا لنُمضيَ بعض الوقت في هذه المساحة الكونيّة وليس لأن نعجّل في الرحيل عنها.

نفضت يديّ من أفكاري التي لا نفع منها كما يفعل الكهل عندما يصرف النظر عن شيءٍ ما، فكلّ تلك التشكّلات والمشاهد كنت أراها أمام ناظريّ منذ الصغر، وتحديداً منذ أن أراني والدي طريق المدرسة، تدفعني فيها كلّ تلك الجماعات بعنفٍ وتضربني أيدي الأطفال في كلّ مرّة دون حركة منّي.

وعندما كنت أقاوم كانت النتيجة تزداد فظاعةً، منذ أن عرفت طريق التعليم وتعليق تلك الحقيبة الثقيلة على ظهري، المريب في حقّي أنّ الطلبة كانوا في المدارس يعرفون ذلك جيداً، يعرفون أنّ الوحدة تعني الهلاك، عندها عدت لرشدي وتساءلت ماذا لو أخبرت الغريب بأنّي لستُ على مذهب الجماعة التي يحشدني بها؟ هل كان سيغيّر ما قاله لي بعد ذلك؟

إنّي أتخيّل كيفيّة سيناريو الحوار، سيرفع كتفيه ويميل رأسه جانباً ويشدّ شفتيه الغامقتين من فرط التدخين، يتصنّع أنّه ليس في الأمر شيءٌ، وأنّ البشر خُلقوا ليختلفوا، وتلك الجمل التي لا تنتهي عن أدب الاختلاف، يُشعرني بأن من يتحدّثون عن الاختلاف بكونه

شذوذاً هم أناس سيّئون للغاية. فجأة تتسلل إلى رأسي أغنية سمعتها لأحد المطربين العرب أثناء الحرب الأهلية في لبنان لم أتذكرها كاملة لكني أتذكر حين يغني: «مين حطلكْ هالوسواس، أنتو ناس ونحنا ناس؟»

كانت عوائلهم هي التي تضع الوسواس فهي المُنتجة لتلك الأفكار، وأنّهم لا يستحقّون العيش، يا لكلّ تلك الترّهات التي سيتفوّه بها الغريب بعد ذلك.

كذلك هم الناصحون وبينما يسترسل في حديثه سأتخيّله في صغره يقف مع مجموعة من الحمقى لاختيار طالب يجلس في ركن الصف ليتنمّروا عليه، أتخيّله ذلك العقل المدبّر لهم، وهو في كلّ يوم يبتكر الطريقة الجديدة ليفرغَ شهواتهم العدائيّة ضدّ هذا الطالب البريء.

كتلك الحروب الخاطفة كان سؤاله، لمن سيكون يومك الأخير في الحياة؟ ردّي عليه كمن فرح لأوّل مرّة بأحد يطرح عليه سؤالاً كهذا.

سؤال يشبه أشياء مررتُ بها كثيراً، مندفعاً بلا تردّد، كما لو أنّها رصاصة طائشة أُطلقت في الفضاء الفارغ.

لا بدّ أن يكون ذلك اليوم للحقيقة، التي حتماً ستأخذ مجراها وأنا ألفظ أنفاسي الأخيرة.

لا يهمّ ماهي تلك الحقيقة وما هي الآثار التي ستترتّب عليها، أو

قانون السببيّة الذي ستسلكه من بعد أن أُخرجها من صدري لتتّخذَ موقعها في آذان من حولي حينها.

ستكون لليوم الذي لا يهمّني فيه إرضاء أحد غيري، ذلك اليوم الوحيد الذي سأشهد بعده غيبتي الكبرى.

سأنثر في الهواء الطلق جملاً كثيرة غير مرتّبة ولا يهمّني إن كانت مفيدة، أم إن كانت تحمل غاية أو تبريراً من وجودها؟

نظرت للغريب وهو ينصت لي بشكل جيّد، وقلت في نفسي: ليتك كنت ذلك الصديق الذي لم أعرفه بعد، ستكون كلّ أيامي معه اليوم الأخير في الحياة، لا أملك أدنى شكّ في أنّ الصديق هو شكل من أشكال الحقيقة.

أعلم بأنّ تلك الحياة وتلك الأسئلة كفيلةٌ بالقضاء على كوكب بأسره، إلّا أنّها فجّرت بداخلي الرغبة للمعرفة، لقد تحوّلتْ إلى شعلة من الفضول وظلّت الأسئلة تتوالد في داخلي مكوّنة أسئلة أخرى لا تنتهي.

كان الغريب ما يزال جالساً أمامي ويلقي عليّ مواعظه وفي تلك اللحظة أعدتُ فتح الرسالة التي كانت من عمّتي....

حقائب القهر

١٩٩٨م.

لم أرغب بأن أملك قوّةً خارقةً كما في تلك اللحظة، قوةً تدفع الأشياء بأن تمضيَ مسرعةً، متّخذةً أماكنها التي أتمنّى لها أن تكون.

إنّ سماعي خبر انتقالي مع عائلتي إلى المدينة الكبيرة كان بمثابة أمِّ الأفراح، الأمر بدا وكأنّ قدمك وضعت لها حيزاً في الحضارة.

كان الحماس في أوج مستوياته، إنّه شيءٌ جيّد لم أشعر به من قبل، كنت على أهبة الاستعداد لهذه القفزة.

ولكن في المقابل كان والداي متوجّسين، بمثل هذا التخوّف والقلق اللذين لهما المقدرة على هدم أيّ فرح تتخيّله، إنّها حيرة الكبار أمام نشوة الطفولة التي لا حدود لها.

أبي أكبر أبناء جدّي الثمانية، كانت هناك مشاورات في عائلتنا الكبيرة بين جدّي وأعمامي، الأمر كان أشبه باستنفار أمنيّ إثر انهيار سدّ مائيّ، وكنتُ لا أعرف الكثير عن ظروف انتقالنا من الهضبة الجنوبيّة إلى المدينة الكبيرة فإن الأمر لم يكن يعنيني كثيراً.

دفعت واقعةٌ حدثت في الهضبة الجنوبيّة قبل عامين والدي أن يتقدّم بطلب نقل إلى أحد المرافق الحكوميّة في المدينة.

كان الجميع حزينين، ولكنّ ذلك الحزن لم يكن حزن الفراق، إنّما حزناً غريباً، حزناً على قرار عُرفت سلفاً نتيجته المأسويّة، إلّا أنّ المضيّ فيه كان إجباريّاً.

كان يوم الوداع غريباً، فالسماء خالية على غير عادتها من الغيوم، ولهيب الشمس كأنّه عرف طريقه إلى منطقتنا الجبليّة المرتفعة في أوقات الصباح الأولى. الكلاب تنبح بلا توقّفٍ، هي أشياء تحدث ولكن على غير عادتها المتزايدة.

أمّا جدّي هذا الكهل الذي يبلغ من العمر ثمانين عاماً، فلم يبرح مكانه منذ مساء الأمس بل إنّه لم يذهب لصلاة الفجر لأوّل مرّة منذ أن عرفته.

لم يكن يعاني من أتعاب جسديّة، فهو طويل القامة كنخلة معمّرة، يحظى بالجاه والوجاهة في مدينتنا، لشخصيّته المتّزنة ولعلمه المتقدّم بالدّين وكذلك بالعادات الاجتماعيّة.

لم يكن يعرفني حقّ المعرفة فأحفاده يتجاوزون الثلاثين حفيداً، كما تميّز بحزم وجدّيّة طوال وقته، لكنّه في ذلك اليوم تحديداً كان ينظر لي بشيء من الشفقة.

على الرغم من أن جدّي لم يكن يثق كثيراً بتعاليم أبي لي، ولا بتعاليم الأجيال الجديدة، فلقد كان المصدر الرسميّ لإطلاق الأوامر وفروض الطاعة والمهمّات، حتى لو طلب إلينا أن نتحوّل من أجله لضفادع بشريّة تقوم بمهمة انتحاريّة فإنّنا لن نتردّد حتماً.

رؤيته للأمور والأحداث تعلو أيّ نظرة لها، ولا يجرؤ أي بشريّ في نظري على أن يرفض له طلباً.

وأعتقد أن الأماكن المزدحمة تتحوّل إلى فضاء فارغ بمجرّد سماع شيءٍ من همسه، فكيف إن حضر شخصيّاً.

كانت الشخصيّات المشابهة لجدّي في وقتها محبوبةً، والناس في المدينة يعرفونها ويتساءلون عن أخبارها بشكلٍ دائم.

لم تكن الحياة بسيطة ولكنها تقليديّة بصرامة تامّة، أمورنا الحياتيّة ميسّرة بسبب سمعة جدّي الناصعة وتاريخ العائلة من قبله.

فعائلتنا تحظى باحترام الجميع، فلم يسبق لها أن دخلت في ثارات ولم يعرفها الناس إلا من محبّي حقن الدماء بأوجههم التي تُحترم، فليس هناك ما هو معقّد عصيّ على الحلّ لدينا.

يربّت جدّي على كتفي بحنان على غير العادة، ويقول لي ببحّة صوته العريضة:

- اسمعني جيّداً وافهم ما أقولهُ لك فأنت لم تعد صغيراً ولا قليل الفهم، أطع كلّ ما يقوله لك والداك فهما الوحيدان القادران على حمايتك.

لم ينهِ هذه العبارة بالتهديد كما هي عادةُ أيّ جملة يقولها بصيغة الأمر. بل وضع مبلغاً نقديّاً في جيبي وأعطاني ظهره، شعرت بأنّ

حنان وعطف الكون كلّه غمراني في حينها، يأتي الشعور بالرضا من أشخاص لم تتوقّع أنّهم يملكون كلّ ذلك العطف.

سبقتُ والدي لمركبتنا المتّجهة بمقدمتها إلى الشمال، وقد كنتُ أعتبر مركبتنا المتواضعة آلة الزمن التي ستنقلنا من عصرٍ إلى آخر.

أخرجت يدي من نافذة سيارتنا القديمة وظللتُ ألوّح بيدي لأودّعهم، دون أن يرفع أحدٌ من عائلتنا الكبيرة يديه ليبادلني الوداع، لم أشغل بالي بهذه المسألة، فالمسافة ستأخذ منّا جهداً كبيراً إلى أن نصل.

ظلّ أبوايَ صامتينِ إلى أن اتضحت مدينتنا وكأنها بالفعل قد ضاعت خلفنا بين رمال الصحراء.

وبرغم أنّي أحبّ أن أثرثر كثيراً، وأفتعل الأحاديث، إلّا أنّني كنت كمن يكلّم نفسه.

لا أدري كيف أَطاقا ثرثرتي؟ ولكنّ ثرثرتي بريئة، تستطيع إسكاتها بنظرة، أو حتى بإشارة صوتيّة واحدة. بينما تتواصل أسئلتي عن بيتنا الجديد، ومدينتنا القادمة التي تخيّلتها مدينة ذات أسوار عالية، كان لخيالي فراسة الحكيم الذي يعرف الناس من أول لحظةٍ يرى الوجوه.

كانت لدي أسئلة من نوع: هل هناك معارف من أبناء مدينتنا سنقابلهم؟ ولم أكن أعرف أن أبويّ كانا ضائعين بين حنين الأرض ومستقبلٍ محفوفٍ بالمخاطر.

لطالما كان الإنسان في حرب أبديّة مع المجهول، ولم ينجُ من طحن رحى هذه الحرب أحدٌ، وعادةً ما يهرب الإنسان إلى المجهول وليس منه.

الطريق قد يستغرق يوماً إلّا أن ذلك اليوم بدا طويلاً، سيارتنا قديمة الطراز احتاروا في تسميتها عندما تم توريدها إلى البلاد فأطلقوا عليها لقب (بوقس)، تيمّناً بقبضة اليد وهي في طريقها للكم أحدهم وفي رواية أخرى لأنّها كانت تشبه الصندوق فأطلقوا عليها لقب Box باللغة الإنجليزيّة. اشتراها أبي لتلائم مرتفعات الهضبة ووعورتها، ولكنّها خانتنا في هذا الطريق الطويل الذي لم تتعوّد عليه.

أحياناً أشعر بأنّ للآلات نفوساً كنفوس البشر، فهي لا تجيد ما هي غير مصمّمة له. وقد اضطررنا إلى المبيت في إحدى استراحات محطّات الوقود، وشيئاً فشيئاً بدأ الطريق يتخلّص من تعقيداته. فالخدمات والأمن يبدأان بشكل تدريجيّ وواضح عندما تقترب من المدينة الكبيرة. وها نحن ندخلها دخول المنتصرين.

كانت المدينة متوهّجة في قلب الليل الدامس، حيّة رغم ما تركنا خلفنا من ظلام في تلك الصحاري المقفرة.

كانت أيّامنا الأولى في المدينة الكبيرة ترتكز على إعادة ترتيب شقّتنا الصغيرة ذات الإيجار المتوسّط، والتي تقع في الدور الخامس في أحد الأحياء الشماليّة.

نحن والحزن كنا ننام في سريرٍ واحد، وقد كنت أظنّ أنّ الحزن والصمت اللذين يعشعشان في عيون أبي وأمي كلّ هذه المدّة كانا بسبب أنّنا كنا نمتلك في الهضبة الجنوبيّة بيتاً كبيراً وفسيحاً، بينما نحن هنا في شقّة متواضعة.

ثلاث حجرات وصالة ومطبخ صغير، لكن بعد تفكيري في الأمر لم أرجّح هذا الأمر كثيراً.

كنت أبحث عن مبرّر لهذا الحزن على وجهيهما، فأبواي كانا من الجيل القديم الذي عاش في ظروفٍ أسوأ من هذه حتى وصل إلى منتصف عمره، فقد كان وجود الكهرباء بالنسبة لهما حدثاً طارئاً، وشيئاً لا يُصدّق حدوثه، وكذلك البيوت الإسمنتيّة كانت ترفاً فأجسادهم تعوّدت على استشعار الطين ورائحته والذي كانت تُبنى به البيوت في الهضبة.

عاد بي التفكير إلى تلك الاجتماعات التي كانت بين أبي وجدّي وأعمامي، لا شيءَ مفهوم، الأمر كان غريباً كذلك، فمن مدينة يعرفنا فيها الجميع، إلى مدينة لا يبدو أنّ أحداً ممّن حولنا يأبه بقدوم أناس جدد إليها.

بعد مضيّ أسابيع، قُرع الباب، إنّه الجار في العمارة الخامسة، رجل ملتحٍ، سبق أن رأيته في الأيام الماضية وأنا ألعب وحيداً في الخارج، سألني:

- أين أبوك؟
- إنّه في الداخل.
- هل تتفضّل وتناديه لي؟

ذهبت لأبي وهو يقرأ كتاباً عن الصحابيّ سلمان الفارسيّ، وبدا أبي مستغرباً

وعندما هممت بالنزول معه على السلّم أمرني بإشارة من يده أن أبقى في الداخل.

وبعد مرور عشر دقائق عاد أبي مستاءً، كنت أختبئ لأسمع حديثه مع أمّي.

- هذا ماكنت أخاف منه قال أبي.
- قالت أمي: ماذا يريد؟
- إنّه يتساءل عن أسباب عدم مشاهدتنا أنا وابني في المسجد لتأدية صلاة الجماعة لقد أعطاني محاضرة دينيّة عريضة، وكأنّني لا أعرف عن الصلاة والعبادة شيئاً.
- ماذا من الممكن أن نفعل تجاه هذه المشكلة؟
- المشكلة ليست في الموعظة بل في كونه سيسلّط أعين الجيران علينا بعد هذا التنبيه.
- ما تقوله مجرّد أوهام، فنحن لسنا كما في الهضبة الجنوبيّة، الكلّ

يشتركون في حياتك اليوميّة ويعلمون كلّ صغيرة وكبيرة عنك، في هذه المدينة لا توجد روابط اجتماعيّة بينك وبينهم، يكفي أن تغلق الباب عليك وتنتهي علاقتك بالناس.

بدا وكأنّي تنبّهتُ من حلمي، فكان سؤالي لنفسي: لماذا لا نصلي في المسجد؟ بالرغم من أنّني كنت أُضرب في الهضبة الجنوبيّة عندما لا يراني أبي في المسجد؟

المسجد لدينا هو تقييمك السلوكيّ، فمهما تكن ذنوبك فإنّ حضورك للمسجد يغفرها، ويبدو أنّ الوضع مشابه في هذه المدينة وبدرجة أحسن، فلا يبدو عليهم أن الآباء يضربون الأبناء من أجل المسجد فما زلت أحسّ ببعض آثار الضرب الذي تلقّيته بهذا الخصوص.

عدت للعب في الخارج، وبعد يومين شاهدت الرجل نفسه، وعلى الرغم من أنّه كان خمسينيّاً وبشرته نضرة ومنتفخ الصدر، إلا أنّ هيئته لا تشبه الملتحين في مدينتي السابقة.

فالملتحون في الهضبة يربطون رؤوسهم بالعمائم البيضاء، ولا يحبّون الأشمغة الحمراء ولا يسبلونها، ويرونها عادة دخيلة على زيّهم، وبعضهم يربطها بحوادث تاريخيّة تمثّل الأسى والحزن لطائفتنا، لذلك لا ترى اللون الأحمر فوق رؤوس الملتحين إطلاقاً. قد ترى هذا اللون في قلوبهم، كما أنّ لحيتهم منظّمة يتمّ فصلها عن

شعر الرأس وشعر العنق كما أنّه يتمّ فصلها عن الشارب، أمّا جارنا وغيره من ملتحي هذه المدينة فكانوا بلحىً كثّة.

فيما بعد عرفت أنّ الأعراف الدينيّة هنا لا تحبّذ أن يتمّ تحديد اللحية ولا تشذيبها، بزعمهم أنّها عادةٌ نبويّةٌ منذ العهد الأوّل للإسلام.

ذهبت إلى أبي لأخبره بأنّي شاهدتُ الرجل نفسه الذي قدم إلينا وسلّمت عليه ولم يردّ السلام، لم أهتمّ ولكنّي لاحظت نظراته الحادّة نحوي، عكس الودّ الذي كان يقابلني به أوّل مرّة عندما طرق باب بيتنا.

توقّعت أنّ ما حدث بينه وبين أبي سيكون عربون محبّة ولكن يبدو أنّ الأمر ذهب للاتّجاه المعاكس، كانت ردّة فعل أبي حادّة هي الأخرى، وقال في جملة واحدة:

- إنّها البداية فقط.

الفتاة ووصمة اليهوديّ

١٩٩٦م.

في مناسبات الأعراس، تصفّق راحات اليد، مخلّفةً ضجيجاً متناغماً، وتتعالى الأصوات من حناجر الإناث وهنّ يتمايلن كزهرة عبّاد الشمس برؤوسهن الملفّعة بالقماش الأسود المثقوب بفتحاته الصغيرة.

كانت الأصوات عبارة عن أناشيد كنت قد سمعتها تصدر في كلّ محفل يستضيفنا.

هذه الأغنيات مزيجٌ متحوّلٌ لا يخلو من الغزل والفخر وليالي الحبّ الخالدة وتلك الكلمات التي لم يعد يستخدمها أهلها.

الأبيات الشعريّة في الأغاني تشبه بعضها بعضاً كثيراً، غير أنّ هنالك لمسةً تعطي الفرق بين شاعر وشاعر آخر لإعادة تركيب تلك الألفاظ وجعلها تتناغم بعضها مع بعض في ألحان فلكلوريّة، وهي من ضمن الأشياء الجاذبة التي تلقفتها تلك الأجيال من أسلافنا.

ومغنيها الوحيد البائس في الساحة، فلقد كان يدندن بآلة العود مقطوعةً واحدةً مع بداية كلّ أغنية كنهايتها.

أمّا مخيّلة الطفولة النقيّة فكانت تصوّر لي أن محرك عربتنا القديمة هو من يصدر هذه الأغنيات لكثرة سماعي لها داخل السيارة فقط، بيد أنّني لم أفهم ما تعنيه كلماتها.

علاقة المغنّي بالناس كما أسمع فكانت غريبة إلى حدّ لا يستطيع من خلاله أيّ عالم نفس أو اجتماعيّ شرحها، كان الناس لا يضعون لهذا المغنّي أيّ قيمة تُذكر باعتباره أتى بشيءٍ دخيل عليهم.

فرؤيته يمشي في الشارع معلّقاً آلة العود في ظهره، تجعلهم يسخطون ويبدؤون في حياكة الإشاعات خلفه، ويقزّمون من كينونته إلى أن يصل الأمر إلى النيل منه وصولاً إلى أجداده.

لقد كان الناس يركّزون على لون الهالة الغامقة تحت عينيه في كلّ مرّة يرونه فيها، ويجعلونها دلالة على أنّه شخص غير سويّ، وأنّه يقضي لياليه في السهر والعربدة والمجون.

كان حديث كبارهم الفارغين عنه يقودهم إلى كلّ ذلك الجهل الذي ينال من الاختلاف بقدر ما فيهم من استطاعة، فهم لا يعرفون أنّ تلك الهالة البارزة ما هي إلا من فرط إبداع الكلمات لتتلاءم مع اللحن، وإن كنتم تقيسون الليالي بالأوقات فهو يقيسها بالأوراق ليلتقط الإلهام منها ومن مخيّلته، ويحشوها في ألحانه ليطرب السامعين بها.

في المقابل لم يكن ظاهر المجتمع يشبه باطنه، فلقد كان الناس يجرّمونه في خلوتهم بينما يستمعون لكلّ أغنية بل يحفظونها عن ظهر قلب.

الجميع كانوا يستغلّون اسمه ليحقّقوا أفضل مبيعات، ولينالوا أفضل ما توصّلت إليه الأذن البشريّة من طرب وإبداع، كانت متاجر الموسيقى والأغاني تضع ملصق ألبومه الجديد على الواجهة، الذي يتضمّن صورته وهو حامل آلة العود واضعاً خدّه البنيّ على ظهر الآلة الموسيقيّة.

كانت صورة العرض تُنبئ بأنّ هنالك شيئاً جميلاً ينتظر مسامع الناس، في دلالة على أنّ هذا الإصدار من الألبوم سيحقّق نجاحاً غير مسبوق.

المغنّي لم يكن يعلم بأنّ الناس يتّحدون تحت مظلّة فنّه، فالطبقات الاجتماعيّة تذوب تحت كلماته وألحانه.

كان الناس يسرعون لشراء ألبومه غير أنّهم محتالون، فهم لا يشترون النسخة الأصليّة من الألبوم إنّما يشترون النسخة القليلة الجودة، بحكم أنّها أرخص، ويمكن نسخها إلى عشرات الأشرطة دون مقابل، كما أنّهم لا يعلمون بأنّهم بهذه الحالة يكتبون نهاية المغنّي بسرعة في عالم الفنّ.

هم لا يعلمون، ولكن ما الفرق بين أنهم عرفوا ما تقترفه أيديهم

في حق المغنّي أم لم يعرفوا؟ فمهنته تعتبر قياساً لعاداتهم وتقاليدهم فعلاً محرّماً، إن بقي وإن رحل فالأمر سيّان.

كانوا يملؤون آذانهم بكلّ كلمة من تلك الأغاني التي يرونها تعكس هويّتهم، وقلوبهم المولعة بغرامات الحبّ، ولو كان الكون بأيديهم لجعلوا الليل لا ينتهي وهم يستمتعون بكلماته وأغانيه، وفي ألعابهم الشعبيّة يقلبون أسلحتهم البيضاء في الهواء وهي تلمع لتتلاءم مع آخر ما توصّل إليه هذا الفنّان في الغناء والطرب.

يبعث تلك القصائد من مقابرها، ومن ثمّ يعيد تدويرها لتصبح جيّدة للحياة، بقي يحيي ما مات من الفنّ، إلّا أنّ هذا المغني ظلّ افتراضيّاً مدى حياته، لا يراه أحد إطلاقاً، وهو ليس سوى صوت مسموع للّذين يطربون له.

أمّا كإنسان فلقد كان ناقصاً إلى درجة الكمال في النقص، يحبّه الناس في مخيّلتهم، ولكنّهم ظلّوا يحاربونه بكلّ ما أوتوا من قوّة في واقعهم.

بعد مرور سنوات طويلة كان المغنّي قد تاب وأناب، استنزف إقناع الناس بأنّه إنسان يستحقّ الاحترام كلّ حياته، وضاعت حياته في محاولة هذا الإقناع، إلى أن بدا شارد الذهن فيما تبقّى من حياته، مات وكان خبر موته غير مهمّ على الإطلاق.

كنتُ برفقة أمّي دخلت معها من خلال ذلك الباب الحديديّ المهيب، كانت مقابض الباب مستمدّةً من زخارف آشوريّة لم يُر لها مثيل في أماكن أخرى من هذا العالم الفسيح، لعلّ الناس كانوا سيركعون لمجرّد وقوفهم أمام هذا المقبض، فكيف بالباب؟!

كما أنّه لا ينقص هذه التحفةَ إلّا أسدان على يمين ويسار الباب، وحفل تنصيب إمبراطوريّ فاخر.

قال لنا أبي في وقت سابق: إنّ هذا الباب قد تمّ نقله من مبنىً طينيّ إلى آخر؛ لما في ذلك الباب من سحر باهر على الرغم من أنّ شكل الباب لا يتّسق مع المبنى الإسمنتيّ المنتقل إليه حديثاً.

علاوة على ذلك لم يكن كأبناء جلدته من الأبواب، فهو لا يصدأ أو يتآكل وأصبح فيما بعد منتشراً في الهضبة كما لو أنّه تقليد.

كان الناس يعرفون أنّ هذه الأبواب من صنع يهوديّ حدّاد، قد رحل وعائلته منذ زمن بعيد في عملية هجرة اليهود إلى إسرائيل، والتي كانت تعرف بمسمّى بساط الريح.

كان هذا اليهوديّ يلقى الاحترام في هذه البلدة من الجميع ليس لأنّه إنسان جدير بذلك الاحترام في نظرهم، ولكن لكونه بارعاً في حرفته التي كانت تمثّل قيمته في المجتمع.

أمّا آباؤه فقد كانوا يمتهنون المهنة نفسها، فصنعوا لأجدادنا

الأسلحة والبنادق لندافع بها عن أنفسنا أو لنقضي بها على الآخرين ممّن كانوا يعبثون بمزاجنا العام.

كان الناس عندما يواجهونه في الطريق يكيلون له من المديح والإطراء ما يكفي لأن تكفّ عن النوم لسنة كاملة من الجرعات الإيجابيّة، ومن فرط الاستحياء كان يطأطئ رأسه إلى أن تتدلّى منه خصلات الشعر الململمة بشكل متفرّد متشبّهاً بحاخاماته الكبار.

ظلّ الناس يبجّلون حرفته التي جعلت آباءهم بتلك القوّة، وجعلت بيوتهم تزداد منعة وبأساً، بينما في الخفاء كانوا يتمنّون أن يزول عرقه الخبيث ويُستأصل للأبد. كان الناس يعتبرونه دنيئاً من ناحية العِرق والدين والحرفة.

كان يعرف ذلك بشكل دقيق و يشعر به رغم كلّ ما يسمعه من مديح، ولكنّه لم يُعر بواطنهم الكثير، فلقد أصبح الناس ماهرين في إخفاء ما يضمرونه في دواخلهم وتعتلي وجوههم الابتسامة في الظاهر، إلّا أنّ تراكمات تلك النوايا السيّئة تبعث فيه شعوراً سيئاً ومتواصلاً، هو يعلم حقيقتهم، فالجمر وإن كان تحت الرماد إلّا أنّ بمقدورك استشعار حرارته.

يذهب إلى ورشته في أطراف البلدة ويصهر الحديد معتبراً إيّاه تلك الضغينة التي وُلدت في نفسه تجاههم، يأخذ المطرقة بعد أن

يزيل رداءه الأغبر المذيّل من جسده ويدقّ كلّ تفاصيل الباب بكل ما أوتي من قوّة، كأنّه يردّ لهم الصاع صاعين مع كلّ طرقة.

لم يكن الأمر شاقّاً بالنسبة له عندما يتعلّق الأمر بالتنفيس عمّا في جوفه من نيران.

ينتهي من شكل الباب ويضع اسمه البارز في أسفله، بعد ذلك ينزله على ماء بارد معلناً تبخّر تلك الضغينة من نفسه وبقاء هذه التحفة الصلبة.

كان يتكفّل بنفسه بنصب الأبواب في أماكنها، يركزها لتنسجم مع مقاسات السور الخارجيّ، وقبل أن يغادر يتثبّت من أنّ هذا الباب سيبقى أطول فترة زمنيّة ممكنة.

كان يعتبر هذا الباب بمثابة علامة انتصار على كلّ ما يقوله الناس تجاهه وتجاه أهله اليهود في الخفاء ليجعلها وصمة عار قد علّقها على جباههم.

كان يرى أنّ ردود الفعل يجب أن تكون بهذا الشكل وإلّا فلا، وما بدأ بالخفاء لا يمكن له أن ينتهي إلا بمثله.

وبهذه الطريقة تنتهي الضغينة لتأخذ مكانها بيننا، بلا شعور أو فهم منّا نعتقد أن ضغائننا تجاه الناس لا أثر لها، لكنّنا نجهل أنّها تتشكّل بلا علم بيننا.

يستقبل اليهوديّ الحدّاد صباح يومه الجديد مشرّعاً الباب لكلّ ما يقال عنه وعن دينه، وحرفته، وعن عرقه الخسيس ومستعدّاً في الوقت نفسه لأن يصنع مملكة من الأبواب ويضعها أمام كلّ بيوت القرية.

جعلنا بابَ اليهوديّ الأزرق، وهذه الوصمة المهيبة خلف ظهورنا لندخل المحفل.

وكفتاة لم أتجاوز السابعة من عمري كنت أسير بجانب أمّي ولا أبتعد عنها، أظلّ ممسكةً بطريقة خفيّة بطرف ردائها الزيتيّ المزركش حتّى لا أبدو طفلة صغيرة تخاف الابتعاد عن أمّها.

كانت أمّي تتعمّد التأخّر في الحضور لكي تلفت نظر النساء في المحفل ببهائها وزينتها، ولأنّي كنت متأهّبة لأيّ خطر قادم سيبعدني عن أمّي لدرجة أنّني لا أريد من نسمة الريح أن تلتقطني.

وكنوع من التلاشي عن الواقع كنت ألتفت خلفها ويدي الصغيرة لا تتوقّف عن الحركة وكأني أطرد النظرات المعجبة من حولي.

على وجهي علامات القبول، شكلي يغري الناظرين لالتهامي، قالب من الحلوى ذو قدمين، وعلى الرغم من أنّي تعرّضت لتأنيب شديد من أمّي وهي تسرّح شعري بالإضافة إلى فستاني الجديد الذي أكرهه، ليس لأنّه ليس فاتناً أو جميلاً، بل لأنّي كنت أريد

أن أحيا سنّي الحقيقيّ وأرتدي زيّاً مريحاً لا يشبه الثوب الذي قيّد حركاتي.

بينما أمّي كانت تريد أن تعطي انطباعاً للحاضرين بأنّها أمٌّ عصريّة، ألبستني فستاناً فضفاضاً أبيض مائلاً للحمرة قصيراً إلى أعلى ركبتي ويكشف يديّ إلى كتفيّ.

النساء كنَّ يغرينني كأنّي فتاة لم تتجاوز سنّ الطفولة بأن آتي إليهن أو ألقي عليهن التحية وأصافحهن، إلّا أنّني كنت أرفض بصمت وأزيد من تشبّثي وقبضتي برداء أمّي مع مواصلة حركة يدي.

كنت أرجو بهذه الحركة أن يتوقّف معشر النساء عن هذا، ولكن يبدو أنّ حركة يدي الطاردة لنظراتهن كانت تجذبهن أكثر، جلست ملتصقةً بالقرب من أمّي، أراقب صخب النساء ورأسي الصغير مطرق على ظهرها، تأمرني أن أتفاعل مع النساء وأبتسم لهن، إلّا أنّني رفضت ذلك فما زلت غاضبة من تأنيبها لي بسبب شعري، كما أنّي لا أحبّ المجتمع الغريب المليء بالضوضاء.

كان صوت النساء في رقصاتهن الشعبيّة والصادر من حديقة المحفل يتشابك في السماء مع صوت الرجال الذين يحتفلون على مقربة من هنا، كان الرجال يقبلون في صف واحد بأبيات شعرية يقولونها في نفس واحد وبشكل جذّاب يجعل جسمك يقشعِرُّ.

ظلّت النساء مجتمعاتٍ حول العروس المتزيّنة بأبهى حللها، بدايةً

بما يعرف بفنّ الجسد المؤقّت؛ صبغة الحنّاء ذات الرسمات المتعرّجة والْمتناغمة تلوّن كلتا يديها البيضاوين وصولاً إلى كتفها.

كان الفستان يشعّ نوراً وبهجةً إلّا أنّ الطرحة التي تغطّي وجهها تعيق من منظر ردائها الجميل.

على شكل العروس أن يبقيها غامضة ومدعاة للفضول وليس لعرض جمالها، كهديّة تمّ تغليفها باهتمام قبل تقديمها لصاحبها.

كانت النساء المتقدّمات في السنّ يعلمنَ أنّ فضول الرجل لاكتشاف المرأة أكثر جدوى من أن تكون واضحة الملامح، كانت الفخاخ تنصب للإيقاع بالرجل.

وبرغم محاولاتي لأن أرى مشاعر العروس تحت أغطية وجهها إلّا أنّني لم أفلح، ولكنّني متيقّنة بأنّها سعيدة ومرتبكة للغاية في آن واحد، إنّه الخوف من المجهول، فمن ستتزوجه هو ابن عمّها، تعرفه على الرغم من أنّه يكبرها بعشر سنوات.

ويكفي أنّه لا يعرفها بالشكل الكافي، فهو لم يقاتل كثيراً من أجلها، ففي وقت سابق تقدّم لها الكثير من الرجال إلّا أنّ أسباب الرفض واحدة، وهي: إنّها محجوزة لابن عمّها.

وابن العمّ يعتبر في نظر العادات أولى من أيّ غريب آخر، وبرغم أنّ أباها وإخوتها يعرفون أنّ ابن عمّها غير ملائم للزواج، عطفاً على الأحداث التي كانوا يرونها في الفترة الماضية، إلّا أنّ

للعادات والتقاليد مفعولاً يجبرهم على أن يقبلوا صاغرين بلا شرط أو قيد.

لم تكن العادات والتقاليد تكترث لشعور هذه الفتاة التي ظلّت تبكي من هول هذا المجهول طوال الأيّام الماضية، لقد مثّلت أمّها الذراع الأمثل للعادات، القوّة الناعمة التي من خلالها يتمّ إقناع الفتاة بأنّ هذا هو خيارها الأمثل، وأفضل مجنّد يمكن أن توظّفه العادات لمصلحتها عندما توظّف امرأة لقمع ذلك الطموح في امرأة مثلها، إنّه الدهاء الذكوريّ في تطويع الأشياء لمصلحته.

كانت أمّها تستهلّ حديثها عن المجهول لتقول لها بشكل مستمرّ أشبه بقطرات الماء المتواصلة وهي تنخر الصخر بأنّها تستطيع أن تحوّل هذا الرجل إلى شخص جيّد، ولا تتوقّف عن ضرب الأمثلة عن نساء استطعنَ بدهائهنّ أن يروّضنَ أزواجهنّ.

وكلّما استطاعت الفتاة أن تقضّ مضجع أحد هذه الأمثلة ابتكرت أمّها أمثلة أخرى، إلى أن تحقّق غايتها وتقنع فتاتها بقدراتها السحريّة على إحداث تغيير في كائن بشريّ.

لم تغيّر الفتاة أبسط عاداتها اليوميّة فكيف تغيّر حياة رجل قليل لا يعرف التقيّد، كان الجميع يعتقدون أنّ دهاء المرأة لا يظهر إلا مع الرجال، ولكن بعد أمّها تيقّنت بأنّ المرأة لا تمارس الدهاء إلّا لإخضاع امرأة مثلها بإقناعها بأنّها لا تملك حقّ الاختيار.

العجيب أنّ الفتاة اقتنعت في آخر المطاف بأنّها قادرة على التغيير، وأنّ محطّتها القادمة لن تخلو من الأفراح، وها هو معشر النساء يجهّزها لحياتها القادمة.

في طرف محفل النساء كان كلّ من في هذا المكان ينظرن إلى سيّدة أرملة لفلاح مسكين مات منذ مدّة ليست بالبعيدة، كانت كبيرة في العمر إلّا أنّها تحتفظ بكامل قوّتها، تحمل بشرة سمراء قليلاً وتظهر التجاعيد ذات الملمس القطنيّ على وجنتيها.

كنت قد شاهدتها في زيارة لمنزلنا قبل سنة أو أكثر من ذلك ولازال شكلها محفوظ في ذاكرتي اللينة، لـم أنسى نظرتها الشاكة نحوي.

كانت تتزيّن كما تفعل نساء المحفل، ولكن هناك ما يعكس أنّها ذات ارتياح ماديّ، على الرغم من أنّ زوجها المتوفّى لم يكن يمتلك سوى مزرعة بسيطة.

لم ينجبا طوال زواجهما أبناء، فهناك من يقول بأنّها سحرت زوجها لتجعله لا يعرف غيرها، والبعض الآخر كان يقول بأن شخصيّتها كانت قويّة تجاهه ولم يكن يجرؤ على فعلة كهذه.

المجتمع لم يكن يعترف إلا بلغة القوّة والسطوة والحديد، ولا يعترف بهامش الحبّ بين الزوجين، لدرجة أنّ الناس كانوا يبرّرون

طول عمرها عن عمر زوجها بكونها صاحبة شخصية أقوى وأقسى من شخصيّته.

مات الزوج وهو في نظر المجتمع مسكين غير مكتمل الذكوريّة، وسرعان ما أزاله الناس بعد أيّام من وفاته من الذاكرة الجمعيّة للمجتمع.

أمّا أرملته الطاعنة في السنّ فكان الجميع ينظرون إليها بإعجاب في المحفل ليس لأنّها تفوّقت على زوجها الميّت، بل لأنّها تمتلك موهبة يبجّلها المجتمع، وترتفع أحياناً إلى مرتبة القداسة.

ذهبت لها أمّي الأنيقة المبتسمة لتهمس في أذنها، مذكرة أياها بشيء لم يتحقق بعد، ثم ردّت المرأة المسنّة بجعل رأسها يميل اتجاه أمي كأنهما كانتا تتحدّثان عن أمر معروف لكلتيهما، ثم بدا على أمّي مشاعر محايدة ومترقبة في تلك اللحظات، كما أنّني لاحظت أنّ النساء في المحفل يتوافدن على المرأة نفسها، ويهمسن في أذنها ويمضين بعد سماع تمتمات منها.

النبوءة

الفتاة تروي..

قبل يوم المحفل بسنتين، دقّ باب بيتنا الذي يقع على بداية الطريق الجبليّ عند الظهيرة، كانت المرأة الطاعنة في السن التي سأعود لمشاهدتها في المحفل، تطلق أصوات أنين وفحيح من مشوارها الطويل، يبدو أنّ طريقنا أتعبها قليلاً، كانت مغطّاة بسواد الرداء المعروف، تعلم بأنّ الناس سيعرفونها من مشيتها المتعرّجة، استضفناها بكلّ ودّ، أمّا أمّي فقد كانت في غاية السرور والبهجة، أدخلتها أمّي إلى مجلس النساء وذهبت لتأتي بضيافة القهوة والشاي إلّا أنّ المرأة المسنّة رفضت وطالبتها بأن تجلس لتنتهي من عملها وتذهب لمواعيد أخرى.

كنت أعتقد أنّ المرأة المسنّة لا تحبّ الجلوس في منزلنا بسبب استعجالها العودةَ إلى منزلها، ولكن يبدو أنّ عدم جلوسها ليس لهذا السبب المثاليّ، فلم تكن مهتمّة بذلك كثيراً، فالمواعيد التي كانت تذهب لها في اليوم الواحد كانت السبب الحقيقيّ، ويبدو أنّ المواعيد لم تكن مهمّة بهذه الدرجة كما في هذا الوقت.

وعلى الرغم من أنّ أمّي رمقتني بنظرة لتطردني من المجلس

النسائيّ إلّا أنّ المرأة نادتني للجلوس، وطمأنت أمّي بأنّ الأمر لا يدعو لأن توبّخي الفتاة الصغيرة.

جلست المرأة تستحضر طقوسها، عندها أدخلت يدها في حقيبتها وأخرجت منها قطعة بيضاء من القماش المطرّز وفي داخلها فناجيل قهوة عربيّة مكسورة إلى قطع غير متساوية، وعدد كبير من نوى التمر وأحجار الجرانيت السوداء الصغيرة.

كنت أنظر للقطعة ولأعين العجوز، ما هذه اللعبة التي تحتاج إلى مواعيد؟ كنت متشوّقة لأن أرى مهارة أمّي والمرأة المسنّة في اللعب ولكن الأمر بدا وكأنّه أخطر من ذلك.

كانت أمّي قد شحنت كلّ تركيزها مع المرأة وكأنّني لست بموجودة، جمعت المرأة القطع في كفّها ثم رمتها على القماش الأبيض المبسوط في الأرض حتّى تناثرت القطع بشكل عشوائيّ، عندها وضعت المرأة سبّابتها وإبهامها في اليد اليمنى على وجهها وظلّت تنظر بتأمّل، كانت تحدّق بنظرها لترى الأشياء، وبسرعة أمسكت بقطعة من القطع المتناثرة التي رماها الحظّ تجاهي ووضعتها داخل قبضة يدها وأخفتها ولم تتكلّم عن القطعة أبداً.

كانت تحرّك قطعتين بعضهما بجانب بعض وقالت: هناك مشكلة ستحدث في عائلتكم وسينتج عنها تغيير كبير في حياتكم، لم تُعطِ مزيداً من التفاصيل غير هذه المعلومة المستقبليّة المبهمة، تنبّهت

أمّي إلى أن وجدت في مخيّلتها أنّ المقصود بهذه الإشارة ربّما يكون علاقتها بزوجها أو شيئاً يمسّ مستقبل أبنائها وارتابت بشكل أكبر لمعرفتها الدقيقة بصرامة أبي وشدّته.

خافت أمّي من أنّ الشرارة التي لم تشتعل منذ مدّة طويلة قد حان موعدها لأن تتصاعد إلى أن تصل إلى أغلى ما تملك وهو أسرتها وزوجها.

كانت أمّي سعيدة في بداية زواجها لكن مع بلوغ إخوتي معظمهم سنّ الرشد بدأت تظهر بعض المشاحنات بينهم وبين والدي، خصوصاً وأنّ والدي لم يكن يتحدّث كثيراً في التفاصيل فقد اعتدنا منه اتّخاذ قرارات مصيريّة يرى فيها مصلحة أبنائه دون توضيحات، وهذا بدأ يُغضب إخوتي.

لم يكن قد حدث شيء خطير، ولكنّ أمّي شعرت بأنّ ما قالته المرأة العجوز هو فأل سيّئ، خطفت المرأة المسنّة قطعة فنجال بيضاء ولكنّها مطرّزة وملوّنة بشكل متعرّج بسبب انكسارها، وقالت وهي ممسكة بالقطعة:

- هذا البيت سيشهد هزّة كبيرة.

وكذلك كانت هذه عبارة عن معلومة مبهمة، تمتمت أمّي بعبارات دينيّة لردّ هذه النبوءة السوداء، ولكنّ المرأة لم تُعر انتباهها لتمتمات أمّي، في تلك الأثناء كنت أحاول كطفلة أن أفسّر ما يقال و

أحاول أن أفهم علاقة القطعة بهذا المشهد المليء بالإثارة والغموض ولكنّي لم أجد شيئاً يدعو للفهم، سحقاً لعالم الكبار هذا، فكم سأحتاج من وقت حتى أفهم ما يدور حولي؟!

في حركة ثالثة أشارت بسبّابة يدها إلى نواتي تمر كانتا موضوعتين على قطعة من الفنجان المكسور، وكانت العجوز تخمّن بتقليب يدها في الهواء، تتأمّل بكلّ ما استطاعت من قوّة، وقالت:

- هذه يا بنتي عاصفة تقضّ أسرار البيوت وتغربلها ولكنّ المباني سالمة، لن يسلم منها أحد، ولن يُستثنى أحد.

تغيّرت قسمات وجه أمّي، وسألتها عن تفاصيل أكثر، ولكنّها لم تردّ بأكثر من: إنّ علم هذه الأشياء لدى الله وحده.

ذكرت بعد ذلك بعضَ القراءات السعيدة، ولكنّ الأخبار السابقة سيطرت على الأجواء، وقبل أن تغادر هذه المرأة فتحت قبضة يدها اليسرى وأخرجت القطعة التي كانت متّجهة نحوي، ورمقتني بنظرة حادّة وقالت لأمّي: أريدك بعيداً عن الطفلة، عندها نظرت لي أمّي بكلّ حنان وإشفاق، وأمرتني بالنهوض من المجلس.

وقفت خلف الباب لأستمع للنهاية، لم أفهم ما قالته لأمّي، ولكنّها سألتها عن برجي السماويّ، فقالت أمّي بأنّ أباها قال: إنّ طالع ابنتها هو الأسد، ثمّ سألت ما إذا كنتُ أعاني من مشكلات صحيّة أو آلام داخل البطن؟ نفت أمّي ذلك، نظرت العجوز لأمّي

بحدّة، وقالت: مستقبل ابنتكم هذه مليء بالشقاء والمعاناة لنفسها ولكم.

لفّت المرأة قطعتها القماشيّة وأدواتها كإشارة لاقتراب انتهاء زيارتها، وهمّت بالمغادرة بعد أن أتمّت مهمّتها التي قدمت إلى هنا من أجلها، وكأنّها لا تريد المال قامت واتّجهت إلى الباب، عندها أمسكتها أمّي من كتفها اليُمنى، وغمست في يد المرأة مبلغاً من المال، رفضت العجوز في بادئ الأمر، ولكنّها قبلت في النهاية.

لو لم تعطِ أمّي المرأة هذا المبلغ لأذاعت المرأة العجوز في كلّ أنحاء الهضبة أنّ أمّي بخيلة، وانتهت سمعة أمّي الطيّبة بين الأوساط النسائيّة، فالبخل أمر مذموم في منطقتنا، وكلّ شيء يُعبث به لدى أمّي إلّا هذه السمعة، لأنّ أمّي خُلقت كصفحة بيضاء ويجب أن تبقى كذلك.

استأذنت العجوز، ثمّ خرجت من الباب الكبير كمنتصرة في معركة لتذهب لمعركة أخرى في موعدها الصباحيّ الثاني.

كانت تنشر المرأة العجوز بين الناس أنّ هذه الموهبة لم تأتِها إلّا بعد أن داهمتها عدّة كوابيس كانت ترى من خلالها قطعاً متناثرة تتشكّل بانتظام وعشوائيّة، وكان من شروط تخلّصها من الكابوس، وعدم رؤيته مرّة أخرى أن تقرأ هذه القطع بالشكل الصحيح وبعد عدّة إخفاقات وأثناء نومها نجحت في قراءتها ثم صحت، وأصبحت تمتهن هذا العمل.

كانت هذه المرأة العجوز هي الوحيدة التي تمارس مهنة الضرب والفأل في المدينة، وبعد مدّة أصبحت نسوة كثر يمتهنَّها، كانت تجد آذاناً صاغية، وتحظى المرأة التي تمارس هذا العمل بالحظوة والاحترام كما أنّها تدرّ أموالاً كبيرة، إلى درجة أنّ بعض نساء هذه المهنة جلبنَ منها قصوراً وأموالاً كثيرة.

كان هذا النوع من بيع الوهم أشبه بمغارة علي بابا التي كانت تدرّ أموالاً لا حصر لها، ومن أجل معرفة الغائب في المستقبل تدفع المرأة ما تملك لتعرف ما ينتظرها خلف الأفق، كانت النساء خائفات من مستقبلهن وعلى وجه الخصوص من رغبات الرجال التي لا تنتهي بالزواج، وكنّ يردنَ أزواجاً لبناتهنّ العنّس اللّواتي طال موعد عدم زواجهنّ فالأمّهات يخفنَ أن يفوت قطار الزواج بناتهنّ.

كان ذلك الموعد هو نقطة التحوّل في بيتنا الذي كان يبدو سعيداً، لقد جلبنا الحظّ السيّئ إلى حياتنا بسبب تلك العجوز التي أرسلها لنا القدر لتتركنا في حالة من القلق والترقّب لكلّ سوء تحمله لنا رسائل الغيب.

الحبكة الخاسرة

الفتى..

في مساء تلك الأيّام القليلة من مساءات المدينة البعيدة حيث تُسلّط إنارة الطرقات أشعّتها على السماء لتخفي نجوم الليل التي كان قدماء هذه المدينة في سالف العصور يتأمّلونها ويحيكون قصصهم منها.

قبيل بداية الدوام المدرسيّ، حدثت مشكلة بسيطة كانت أوّل دقّة لناقوس الخطر.

ذهبت مع عائلتي إلى الحديقة المجاورة لحيّنا الشماليّ الجديد، جلس والداي على العشب الأخضر، وحضّرا شراباً اصطحباه معهما من مدينتنا الصغيرة ويُعرف بالقشر، وهو مشروب مستخلص من قشر القهوة العربية.

كانت بداية الجلسة مبشّرة بالخير، فوالداي يتجادلان حول أولويّة المشتريات التي نحتاجها في بيتنا مع المرتّب الجديد.

أمّي كانت ترى أنّ للمطبخ وغرفة النساء أولويّةً، لأنّها تريد أن يأتينا ضيوفها الخاصّون من أقاربها النساء، وأبي مصرّ على أن يشتري

مجلساً لمقعد الرجال في البيت الجديد ليضع صورة جدّي التي جلبها معه من الهضبة الجنوبيّة في صدر المجلس، كان الجدل بيزنطيّاً لا يعني شيئاً لأنّنا في حقيقة الأمر لا نملك المال الكافي لذلك، لأنّ جميع مدّخرات أبي أنفقها في عمليّة نقل الأثاث القديم.

وفي أثناء هذا الاختصام الذي لا ناقة لي فيه ولا جمل، ذهبت إلى مجموعة من الفتية الذين يلعبون بالكرة، ولطالما حلمت بأن أكون لاعباً في أحد الأندية الكبيرة.

كان اللعب حماسيّاً، استعرضتُ مهاراتي المستمدّة من طبيعتي الجبليّة الخاصّة، فجسمي النحيف يساعدني على السرعة والانسيابيّة في المراوغة، واستخلاص الكرة عن طريق ما يعرف بالانبراش.

كان الأمر مسليّاً إلى حدّ كبير، كنت في قرارة نفسي أعتقد أنّني ألفتُ الأنظار، حسبتُ أنّني نجمٌ لا يُشقّ له غبار.

وأثناء اللعب سألني أحدهم:

- من أين أنت؟

كان سؤالاً ينمّ عن الإعجاب بمهاراتي، وكأنّه ينتظرني أن أقول له من ريو دي جانيرو هناك في البرازيل، وكأنّ البرازيل تبعد عن مدينتنا بضعة كيلو مترات، أجبته بكلّ ثقة:

- هناك من أقصى الجنوب من الهضبة.

واصلنا اللعب، ثمّ أتت فترة الاستراحة بعد لحظات متعبة، فذهبت لأشرب الماء، وإذا والداي يضحكان ويتسامران وكأنّ شيئاً لم يكن بينهما.

عدتُ للّعب وفي لحظات بسيطة أتى الفتيان يحملون على وجوههم علامات تدلّ على تلقّيهم توبيخاً، أخذوا كرتهم وقال أحدهم بشكل خجول:

- آباؤنا هناك.

وكانوا يشيرون إلى مجموعة من الرجال يجلسون بعضهم مع بعض.

- يطلبون إلينا ألّا نلعب كرة القدم مع شيعيّ.

- أنا لست..

لم أكمل نفيي حتى أعطوني ظهورهم مطأطئين رؤوسهم ليلعبوا بالكرة في مكان قريب منّي.

كان الأمر ذا وقع قاسٍ عليّ، شيئاً لم أتعوّد عليه منذ أن عرفت نفسي، سألت نفسي: ما هذا الشيء الذي يقولونه؟ أفي شكلي ما يزعج، أم أن طريقة لعبي خشنة؟

ذهبت وجلست مع والديّ، وعندما تساءلا عن سبب هذا الوجه العبوس الذي جلبته معي، وفي ظنّهما أنّ هناك مشكلة روتينيّة.

حدّثنا يا بنيّ، ماذا فعل الأطفال معك حتّى عدت إلينا منزعجاً هكذا. أجبتهم: إنّ الأطفال قالوا لي هذه الكلمة، اشتاط أبي غضباً، وقرّر الذهاب إليهم ليلقنّهم درساً في التعامل والأدب، ولكنّ أمّي عارضته وظلّت ترجوه بأن نغادر فوراً، وبعد محاولات من أمّي، التي كانت تعرف جيّداً كيف تطفئ نيران غضب أبي، هدّأ أبي من روعه، وجمعنا أغراضنا وعدنا إلى المنزل.

صنعت أمّي أجواء مرحةً داخل السيّارة، وظلّت تختلق الأحاديث وجعلت الأمر كما لو أنّ شيئاً لم يكن، والحقيقة أنّها كانت بارعة في أن تذهب بنا إلى أماكن أخرى بعيدة عندما تعترضنا أيّ مشكلة، كما أنّها تعمّدت ألّا تجعلنا نعود للبيت إلّا في وقت متأخّر لنصل منهكين، وننام دون أن نخوض الأحاديث حول الحادثة.

لم أنم بشكل يسير، وكنت متيقّناً بأن أبويّ لم يستطيعا النوم كذلك، كنت أتساءل عن هذه الكلمة التي قالها لي هؤلاء الفتية، وعن ردّة فعل أبي.

في مدينتي لا تقال هذه الكلمة كثيراً إلّا في مجالس الذكر أو في الأحاديث الدينيّة، ما هذه الكلمة التي يتغير معناها بتغير المكان؟ كيف يكون هذا؟ ذهبت لأمّي بما أنّني أستطيع أن أحادثها في أيّ شيء يجول في خاطري، بعد أن تحقّقتُ من أنّ أبي خلد للنوم.

- أمّاه من هم الشيعة؟ ولماذا يقال لنا شيعة؟

كنت أكره هذه الكلمة، أخذتني أمّي لصدرها وقبّلت جبيني الصغير، وقالت لي:

- لا عليك من كلّ هذه الأشياء، ولا تشغل بالك بالخوض في غمارها، غداً ستكبر وستعرف حقيقتها.

أعرف أنّني عنيد، وتزداد قريحة العناد لمجرد كبح فضولي عن معرفة شيء ما.

لم تمرّ حادثة الحديقة مرور الكرام بالنسبة لأمّي وأبي، ويبدو أنّ أبي استشعر الخطر، وبدأ يرتّب الأوراق للحدّ من مشكلة قد تواجهني كابن لهما.

يستدعياننني كأنّهما يريدان أن يتلوَا عليّ حكماً من المحكمة، أنظرُ إليهما، وأقول في سرّي: يبدو أنّني ارتكبت خطأً ما، وأنا الآن في جلسة استجواب.

- اسمعنا جيّداً وأعرنا انتباهك للحظات، فهذا الموضوع يجب أن تطبّقه بحذافيره، كلّ شيء يبدو على ما يرام إذا ما طبقت ما نقوله لك.

في البداية سيكون الأمر على هيئة ضمانات، هنا الوالدان يلوّحان بأيديهما على صدريهما، إشارة إلى الثقة التي استمدّاها من خبرتهما في الحياة وبعض الإشارات في الأفق.

- اسمعنا يا بنيّ جيّداً، ما حدث معك في الحديقة لن يحدث في مكان كالمدرسة، إنّ الأمر مختلف تماماً، هناك ستلقى مدرّسين على مستوىً عالٍ من الوعي سيعاملونك كما لو كنتَ ابناً لهم.

أعجبتني فكرة كوني متعدّد الآباء، بيد أنّني أدركت جدوى التغيير، فإذا لم يلائمني الوضع هنا في البيت، بالأخصّ عندما يرفض الوالدان أيّ طلب لي، فماذا تريد أكثر من ذلك؟ إنّها أفكار الطفولة عندما تريد أن تتخلّص من السطوة الأبويّة.

وأكملا حديثهما لي:

- لكن اتّبع ما سنقوله لك.

أشرت لهما بحركة وجهي العموديّة، وأنا مطبقٌ فمي ولكنّها إشارة بالموافقة.

أكملا استجوابهما لي مرّة أخرى، وازداد امتعاضي من هذه النصائح.

- الأمر يختلف عمّا كنّا عليه هناك في الهضبة الجنوبيّة، فهذه المدينة كبيرة، وتحدق بنا الأخطار من كلّ صوب.

يبدو أنّ أبي يريد أن يرفع من حالة الطوارئ لديّ، ثمّ واصل نصائحه قائلاً:

- إيّاك وأن تبدو كما أنت بيننا، تكلّم باللهجة البيضاء العاميّة،

واترك استخدام كلماتنا الخاصّة في الهضبة، وابتعد عن إثارة المشكلات، والأهمّ من ذلك كلّه ألّا تخبرهم بالأهمّ.

- سألت أبي: وما الأهمّ؟

- أجاب بحزم: لا تقل لهم إنّك من الهضبة الجنوبيّة، ويكفي أن تخبرهم بأنّك من الساحل، وأرجو أن تحذف اسم عائلتنا، وإن سألوك فقل لهم بأنّها ليست نفسها العائلة الشهيرة في الهضبة، إنّه تشابه أسماء ليس إلّا.

استجوبتُ والدي بأسئلتي الطفوليّة المعتادة والتي تنتهي دائماً كما بدأت.

- ولماذا لا أذكر لهم أنني من الهضبة؟ ولماذا سأخفي اسم عائلتي؟

وبعد أن سألت أعطتني أمي ظهرها متذرّعة بتجهيز العشاء، وهي لم تقم إلّا لأنّها لا تملك إجابة عن سؤالي، ولأنّها لا تريد أن تقف في وجه تعليم أبي لي.

طبّق والدي التكتيك الدائم وقال وهو غاضب:

- انظر إليّ واسمع ما يقال لك، وكن مطيعاً ولا تكثر من الأسئلة.

كتمتُ امتعاضي في نفسي كما أفعل دائماً، ماذا يعني أن أقول إنّني من الهضبة؟ وما العيب في ذكر اسم عائلتي بدلاً من هذا الساحل الذي لا أعرفه؟

في ذلك العمر لم أعتبر اسمي واسم العائلة إلّا عبارة عن كلمات متراصّة مصفوفة تشير إلى إنسان ما، وسلسلة من الأسماء التي عاشت في أزمنة وأمكنة متفاوتة.

كانت ليلة ثقيلة والأولى من نوعها، أين العدالة في هذا الموضوع؟ هل سأخفي اسمي الأخير ومسقط رأسي؟ ما هذه الألغاز التي لا أفهمها؟ وما علاقتنا بالساحل؟ إنّي من هواة الثرثرة، كيف سأتكلّم عن شيء لا أعرفه؟ كما أنّني سخيف في الكذب، وجهي يفضحني في أتفه الأشياء فكيف باسمي ومسقط رأسي.

لم أجد في الأمر شيئاً يستحقّ كلّ هذه المعاناة، سأبقى كما أنا، ولن أغيّب شمسي من أجل أحد، كما أنّ معرفة والدي بي حتماً تنتهي من دخولي إلى المدرسة.

جهاز التكييف يضخّ الهواء المصطنع البارد في غرفتي، الخيوط الناعمة ظلّت تتسرّب إلى عقلي مشكّلة تلك الصورة الورديّة، فناء المدرسة، الطلبة المرحون، المدرّسون المبتسمون طوال اليوم، إنّها مدارس المدينة الكبيرة، حيث الرقيّ والحضارة.

لم أكن مستعدّاً في حياتي كهذه المرّة، أريد أن أحقّق كلّ شيء بدا صعباً من قبل، الأصدقاء وإبهار المعلّمين باجتهادي، وأريد أن أحلّق في السماء لأضع الكرة في المرمى برأسي، كما أنّني أريد أن أرفع رأس والديّ عالياً، لأردّ لهما الجميل عن كلّ تلك الأشياء التي قدماها لي بما في ذلك انتقالي إلى هنا.

وكما هو التخدير الكامل في غرفة العمليات انسلّ إليّ النوم بنعومة بين جسدي ورِدائي ثم سرعان ما اختطفني إلى مرحلته السابعة.

إنّها ابتدائيّة الحيّ الشماليّ، مبنىً مكتظّ بالطلبة والمدرسين، إنّ عمر هذه المدرسة ليس بالكثير فهو لم يتعدَّ عشر سنوات منذ أن وضعوا لها حجر الأساس.

كُتب على جدران المدرسة نصائح، ومواعظ تحفيزيّة من نوع من جدّ وجد ومن زرع حصد، وبعض العبارات الصبيانيّة الأخرى، ولم تكن تختلف كثيراً عن مدرستي في مدينتي السابقة حتّى في طلائها الرماديّ الباهت.

أيّامي الأولى كانت تعريفيّة، وبالمناسبة فلقد علّقتُ أوامر أبي وأمّي على باب الشقّة وذهبت من دونها.

في مدينتي في الهضبة الجنوبيّة كنت معتاداً على مثل هذا السلوك بالأخصّ عندما أجد أصدقائي، لنذهب ونصنع مغامراتنا الخاصّة، ومؤخّراً فهمت أنّ للمنزل أموره وقراراته التي ليس لها مبرّر في الخارج، وأنّ ما تتلقّاه داخل البيت قد يتسبّب في تعاستك خارجه.

لا أعلم لماذا فكّرنا بهذه الطريقة؟ ولكن من المؤكد أنّ الإنسان يتوق دائماً إلى التخلّص من القيود بدلاً من أن يضعها على رقبته في كلّ وقت، حتّى ونحن نُراقب من أهلنا كنّا نجد الطريقة المناسبة

للتخلّص منها، لقد كان الأمر ممتعاً حتّى ونحن نُعاقب، نجتمع في الغد وكلّ فتىً منّا يخبر عن عقوبته.

الأمر كان روتينيّاً ومضحكاً في الوقت نفسه، نصنع مغامرة جديدة بلا قيود، وعلى الرغم من أنّنا نُعاقب بشكل مستمرّ، إلّا أنّ الأهل كانوا يشجعوننا بطريقة مبطّنة، فالأهل يفتخرون بأبنائهم الذين يكسرون القواعد والقيود، والذين يرتجلون في قراراتهم وتصرّفاتهم، الذين يثيرون المشكلات بعراكهم مع أبناء الناس، والذين يملكون شخصيّة فولاذيّة، تجعلهم يظلمون ويبطشون دون رادع، ويرون في ذلك مظهراً من مظاهر الرجولة التي ستصنع شخصيّة هذا الطفل في المستقبل.

بينما أطفال القواعد وتنفيذ الأوامر لم يكونوا يحظون بذلك الحبّ من قبل الأهل فلقد كانوا يمقتونهم، حتّى وإن تلقَّوا الثناء والإطراء اللحظيّ، إلا أنّ الأهل يرون في قرارة أنفسهم أنّ سلوك الانضباط هو سلوك أنثويّ، وجميعنا نعلم الأثر الذي سيتركه في المرء عندما يصفه الكبار كامرأة، إنّها أسوأ شتيمة يمكن أن يواجهها طفل على الإطلاق.

لم أكن من ذلك النوع الذي يحبّه الكبار كثيراً، فكسري للأوامر أجده جريمة يجب أن أخفيها كلّ يوم على أهلي، فكيف بإثارة المشكلات؟! قد يكون هنالك خطأ مطبعيّ في تركيبتي الجينيّة.

حتّى في مغامراتي مع الأطفال كان يُوكل لي من قبل زعيم المغامرة أتفه المهام عندما نقرّر سرقة مزرعة مليئة بالفواكه، وهي مهمّة المراقبة، وكلّ ما عليك فعله هو أن تطلق الصافرة عبر وضع أصابعك في حركة معيّنة تحت لسانك، ومن ثمّ إطلاق دويّ صافرات الإنذار عند اقتراب خطر ما، كانت مهمّة جميلة وستحظى إن انكشفت بعقاب مخفّف، لا يصل لعقاب سارقي الفواكه، ولكنّ وظيفة كهذه لن تمنحك الوجاهة أمام الأصدقاء، فهم يرون أنّ المراقب أسوأ تكليف في المهمّة وهم يهربون من ذلك، الأغبياء لا يعلمون بأنّها الركيزة الأساسية عند أيّ عمليّة سطو ولا توجد عمليّة بدون مهمّتي الخطيرة، هكذا نشاهد في الأفلام.

ضربت بأوامر أهلي عرض الحائط، وذهبت أعّرف عن نفسي بعد أن سألني المدرسون والطلبة.

كنت أقول لهم اسمي الرباعيّ ومدينتي، بدا وكأنّ الأمر طبيعيّ، عندها أدركت أن والديّ لا يعرفان إلّا ما هو محيط بهما.

كنت أُجري الأحاديث مع الطلبة كأنّني في مشاورات دبلوماسيّة رفيعة المستوى، فكلّ شخص منهم له قصّته الخاصّة ومغامراته.

كنت مسرفاً في الصداقات وكأنّني لم أتعرّف على كائن بشريّ من قبل، فهذه الصداقات ستكفيني لعشر سنوات مستقبليّة، لم أكن على

اطّلاع كافٍ في عالم الصداقة المدرسيّة، فهي في الغالب لا تتجاوز سور المدرسة.

عدت للبيت بحقيبتي ذات اللون الأخضر المائل للعشبيّ محمّلة بالكتب والدفاتر بالإضافة إلى يوم في غاية الفرح والسرور، يوم حقّقت فيه كلّ متطلّبات اليوم المدرسيّ الحلم.

وصلت للبيت وبعد ساعة قدم أبي من عمله وهو منهك، وكان الاجتماع العائليّ على وجبة الغداء.

أستغربُ إصرار أهلي بالسؤال عمّا قلته عن اسمي واسم مدينتي، كان هذا هو سؤالهم الرئيس وبالخطّ العريض، كذبت عليهم وقلت: إنّي زوّرت اسمي كما أمراني وأخبرتهما بأنّه لم يسألني أحد عن مدينتي.

كنت قد تمرّست على الكذب منذ نعومة أظفاري، حتى أصبحت خبيراً في هذه المهنة، نحن نكذب لكي نقلّل من النقد واللوم، ولعلّي أكذب كذلك من أجل ألّا تكون نهايتي الضرب أو الحرمان، إنّي أكذب كما لو أنّني وليّ الأمر وهما الطفلان، أتكلّم بلغتهما، وأقول لهما: لا تتكلّما وتأمرا بما لا تعرفان، الراحة والرضا يرسمان مشهد بيتنا، كنت أضحك في قرارة نفسي، وأنا أستعيد أشكالهما وهما مصدّقان بأنّني غيّرت من سلوكيّاتي في مسقط رأسي.

وكعادتها أيّام المدارس تمضي بسرعة البرق، حتّى تجاوزنا الأسبوعين الأوّل والثاني، بدا أنّ المدرّسين والطلبة تعرّفوا على شكلي الوديع.

كنت قد اعتدتُ على الأمر، وبدا أن قابليّتي للتعلّم زادت على السابق، فالأجواء العامّة والطلبة كانوا يساعدونني على ذلك، تعرّفت على صديق جديد، ثرثار مثلي ولكنّه أفضل منّي في تصويره الذهنيّ للمشاهد التي قام بها في الواقع، كنّا نثرثر كما لو أنّنا ننسج مقطوعة موسيقيّة صاخبة، كنّا نقوم بتهويل المواقف، فنجعل من الموقف البسيط حدثاً أسطوريّاً، فنحن ندخل المحسّنات البديعيّة والاستعارات بشكل مرتجل يدعو للتأمّل.

كنت أتساءل عن عدم قدرة الناس على الجلوس مع الثرثار لمدّة طويلة، وكانت إجابتي بعد تمعّن طويل في هذه المسألة الشائكة هي أنّ الثرثار يدخل المستمع في دهاليز وتفرّعات طويلة لا يستطيع الخروج منها.

لم يسبق أن مرّ عليّ ثرثار لا أريده أن يسكت إطلاقاً، كان ذا رأس مكوّر يشبه كرة السلّة الصغيرة، بشرته بيضاء مائلة للحُمرة، وجهه وديع ولكنّه يلبس نظارة سميكة العدسات تشبه إلى حدّ كبير دربيل المهمّات الاستطلاعيّة بسبب إطارها الأسود القاتم، كان لا يحبّ الاحتكاك الكثير بالطلبة، لم أكن أعرف السبب في بداية

الأمر ولكن بعد أيّام اكتشفت فلسفته عن الآخرين، فهو يرى أن المزيد من الأصدقاء يعني بالنسبة له، المزيد من الاحتكاك الجسديّ، وبالتالي زيادة فرص سقوط نظّارته بعد أيّ مشاجرة، فهو كان لا يرى من دون النظّارة.

قبل مجيئي كان صديقي الثرثار يصل إلى المدرسة في سيّارة عائليّة فارهة يقودها سائق من العمالة الأجنبيّة وفي المقاعد الخلفيّة تجلس أمّه التي تأتي كلّ يوم لتقلّه إلى المدرسة.

في أحد الأيّام فتح لي باب السيارة وأمرني بالركوب بطلب من أمّه، التي تلبس نظّارة شمسيّة شفّافة مائلة للزرقة، أرى عينيها من خلال النظّارة، كانت جميلة للغاية ولكنّها متكلّفة بالزينة ومساحيق التجميل، لا يبدو عليها الكبر، صافحتني بيدها الناعمة وسألتني عن حال أهلي، أخبرتني بأنّ ابنها الثرثار يمتدحني كثيراً، وأنّها سعيدة بحديثي معها.

غادرت هي وابنها، في تلك اللحظة شعرت بالفروق الطبقيّة بيني وبينهم، أحسستُ كما لو أنّني أكلّمهم من أسفل الجبل وهم في أعلاه، لم أكن رثّ الملابس إلى تلك الدرجة، ولكن في أحسن أحوالي كان يتّضح أنّي ابن طبقة متوسّطة.

فيما بعد لاحظت أنّ أسلوب صديقي بدأ يتغيّر تجاهي، كانت ثرثرته اللا نهائيّة قد تحوّلت إلى كلمات قليلة، وهذه شيفرة لا يفهمها

إلّا نحن بني ثرثار، فعندما لا يلائمنا المكان أو نشعر بضيق ما فإنّ أعداد الكلمات التي نتكلّم بها تتقلّص من ألف كلمة في الدقيقة إلى ثلاث كلمات، إنّه شيء يشبه الانحدار من أعلى الشغف إلى قاع اللا مبالاة.

كلّ أحاديثه معي أصبحت إجاباتٍ مستعجلةً، يبدو أنّه تلقى التوبيخ من أمّه الجميلة، وأمرته أن يبتعد عنّي نهائيّاً على الرغم من أنّها أثنت عليّ في اللقاء الأخير، ولكنّها طبيعة الطبقة الفارهة فمجاملاتهم لك لا تعني رأيهم الحقيقيّ، وقد يكون هذا رأيي لو كنت أمّه.

كنت أرى في عينيه ذلك الصديق المحبّ، ولكنّه مغلوب على أمره، قلّت الأحاديث مع مرور الأيّام إلى أن تحوّلت إلى لا شيء، لم يبدُ أنّ الأمر مؤثّر بالنسبة لي، فعدد الأصدقاء كان يسعفني بألّا أتعلّق بأحدهم، فالبدائل تعوّضك عن أيّ خيبة، كما أنّ إصراري على أن أحقّق نتائج مرضية في المدرسة ساعدني في أن يقوم عقلي بتغييب صورة هذا الصديق حتّى وهو أمامي، وكأنّني جعلته يعود كغريب كما كان سابقاً.

تشكّلت في أذهان زملائي الطلبة صورة جميلة عنّي، تنمّ عن الأريحيّة والقابليّة، وكنت أشعر بتلك المشاعر وهي تتسرّب إلى أناياَ الصغيرة التي بدأت بالتضخّم يوماً بعد يوم، ما عدا بعض الطلبة

الذين التزمت الحذر معهم، فعلى الرغم من أنّهم لم يبادروا بتصرّف يستوجب الحذر إلّا أنّ هيئتهم كانت تصيبني بالقلق.

يجلسون في زاوية الصف اليسرى، ستّة طلبة، يبدو أنّ لديهم علاقة متينة خارج المدرسة وكأنّهم إخوة من بطن واحد، رداؤهم قصير، ويسبلون الأشمغة ويجعلونها مهملة من الجانبين ولا يغيّرون من هيئتهم، كما أنّ السواك لا يبتعد عن أفواههم، يمضغون فيه كما لو أنّهم حيوانات نباتيّة في المرعى، كانوا صورة مصغّرة عن جارنا في العمارة الخامسة، وفي الوقت نفسه كنت أرى أنّهم لن يعرفوا شيئاً، قد تكون الأجواء التي وجدتها في الأسابيع الأولى هي من أعطتني هذه الصورة وهذا التفاؤل.

إنّه يوم الأحد ثاني أيّام الأسبوع الخامس الدراسيّ، في ذلك اليوم لم نعد نفرّق بسبب شدّة الحرّ بين الأرض والشمس، كنت أشعر بأنّ الفاصل بيني، وبين الشمس بضعة سنتيمترات.

إعلان عاجل في المكبّرات الداخليّة بالمدرسة بأنّه سيتمّ إلغاء الحصّة الدرسيّة الرابعة، وسيقوم أحد المشايخ بإلقاء محاضرة إلى أن يحين موعد صلاة الظهر، كان جميع الطلبة مسرورين، فالأصدقاء سيجلسون بعضهم بجانب بعض وتتعالى الضحكات.

فُتحت أبواب الصفوف وبدأنا كطلاب بالخروج بشكل منظّم، إلى أن جلس جميع الطلاب في المصلّى الذي يتّسع لأكثر من

ثلاثمئة طالب، بدأ الطلبة بالحديث بعضهم مع بعض، إلى أن دخل المحاضران الدينيّان، وفي أجزاء من الثانية صمت الجميع.

كان دخولهم خفيفاً كالظلّ، يا لهذه المصادفة! إنّه جارنا في العمارة الخامسة ومعه شخص ملتحٍ أسمر البشرة، وفي منتصف جبهته هالة سوداء خفيفة تستطيع مشاهدتها من مسافة بعيدة، ولكنّي لم أرَه من قبل، لا أدري لماذا تخيّلت الدخول الاستعراضيّ في المصارعة الحرّة، وبدا من وجوه الطلبة أنّ هذين الملتحيين من المشهورين أو المعروفين.

بدأت المحاضرة بإلقاء الأحاديث المضحكة، والمواقف الطريفة التي حصلت معهما أثناء طفولتهما وصولاً إلى مرحلة المراهقة، ثمّ بطريقة عجيبة دخلا في محاضرة حول التوبة من المعصية والذنوب، وكنت أتساءل في نفسي: ما هي الذنوب التي قد يقترفها طالب في الابتدائيّة ليتوب من أجلها؟

ظلّ التفكير يسيطر عليّ، ما أكبر ذنوبي التي اقترفتها يداي؟ تذكّرت مهمة مراقبة سرقة الفواكه من مزارع مدينتي، ولكنّي وجدت مبرراً مناسباً لهذا الذنب، فلو أنّي رفضت هذه المهمّة فإنّ أصدقائي الأوغاد لن يلعبوا معي وسيصفونني بالجبان، قد أحتمل ابتعادهم عنّي، ولكنّني لا أحتمل أن يُقال عنّي جبان، وأشبّه فوق ذلك بالنساء فهذا أكبر من قدرتي على الاحتمال، ولكنّي مع ذلك

أتوب منها، فهذه المدينة لا يسكنها أصدقائي القدامى ولا توجد فيها المزارع.

ومن ثمّ تذكّرت أنّ هناك ذنوباً يصعب عليّ عدم ارتكابها، كمواصلة الكذب على والديّ، ما أصعب أن تكفّ عن ذنب ما! ذنب لا مفرّ من ارتكابه، إنّ الهاوية تحاصرنا.

الكلّ مسرورون بهذه المحاضرة، وبينما أنا في لحظة انسجام وتركيز مع ما يقوله المحاضران، وقع نظر الجار عليّ وهو يتحدّث، ولكنّ نظرته كادت أن تخترق جسدي الصغير، لم تتغيّر نظرته هذه عن نظرته الأخيرة لي وأنا ألعب في الشارع أمام عمارتنا، رفع المؤذّن الأذان لصلاة الظهر.

صلّى بنا المحاضر الملتحي الثاني ذو الهالة على جبهته، ومن ثمّ انتهينا من صلاة الجماعة، وفي طريقي شاهدت جارنا المحاضر يجتمع مع المدير ويشير بإصبعه السبّابة تجاهي، ولكنّ المدير سحب جارنا إلى مكتبه الخاصّ بحركة سريعة. ظللت أتساءل ماذا عساي أن أقول للمدير عندما يسألني لماذا لا تذهب لمسجد الحيّ برفقة والدك؟

هل أقول له بأنّ أبي رفض وسيتمّ استدعاء أبي ويتمّ تضخيم الأمر، لا، سأقول بأنّنا طوال اليوم غير موجودين في البيت.

لم يستدعني المدير الذي كان بالمناسبة ملتحياً ويبدو عليه الالتزام

والصرامة، فحتّى المعلمون يهابونه، كما لو أنّه قائد لإحدى معارك المسلمين ضدّ الروم، انتهى ذلك اليوم دون أيّ جديد يُذكر، ولكنّي لم أخبر أبي بما حدث.

في اليوم التالي دخل علينا في الصفّ أستاذ التفسير، وكان يجيد التقعّر في اللغة بغرابة وبتكلّف واضح، هيئته الدينيّة الملتزمة مبالغ فيها، كان في حصصه السابقة لا يعطي أيّ اهتمام إطلاقاً، يدخل ويقرأ ما في الكتاب، أو يأمر أحد الطلاب بالقراءة بدلاً عنه ومن ثمّ يغادر الحصّة قبل نهايتها بدقائق.

في تلك الحصّة كان ينادي باسم الطلبة من كشف الحضور، وعندما وصل إلى اسمي حدّق فيّ كصقر وجد فريسته، لاحظت أنّه يركّز عليّ كثيراً، أمرني بالوقوف، وسألني عن الحصص السابقة وما حفظته من التفاسير القرآنية، ومن ثم أمرني بالقراءة، لقد كنت أقرأ بارتباك وأتلعثم من فرط الحرص، لم يعطِ أيّ ملاحظة تجاهي أو تجاه تلعثمي في القراءة، فتركيزه لم يكن منصبّاً كثيراً على قراءتي، و لم تكن غايته معرفة مستواي الدراسيّ، بل كان يريد معرفة شيء معيّن يخصّني، شيء لا أعرفه، لم أفهم ما يريد، قال لي بشكل مفاجئ وبشكل نرجسيّ:

- من أين أنت؟

- قلت له: من الساحل.

بالرغم من أنّي أخبرت الطلاب بأنّي من الهضبة الجنوبيّة، ولكن في إصرار منه قال لي أمام الطلبة:

- يجب أن تصدق معي أيّها الطالب؟

- فقلت له مرة أخرى: فكررت إليه ردي مرعوباً أنا من الساحل.

ومن حظّي أنّ الحصّة انتهت وقُرعت الأجراس، كان الحدث يبدو طبيعيّاً ولكنّه صدر من معلّم غيّر من سلوكه بشكل مفاجئ، وهذا ما جعل الطلّاب يلاحظون، والذي زاد الأمر سوءاً أنّ الطلّاب لاحظوا أنّي ذكرت له اسم مدينة تختلف عن الاسم الذي ذكرته لهم سابقاً.

بعد نهاية الحصّة حالفني الحظّ في تشتيت انتباه الطلّاب، وفي إدخالهم في أحاديث جانبيّة، ولكنّ مجموعة من الطلبة ذوي الرداء القصير لم يمُرَّ عليهم موضوع كذبي مرور الكرام، فذهبوا ليخبروا معلّم التفسير بأنّي قد غيّرت اسم مدينتي، وأنّي كذبت عليه.

وفي يوم الأربعاء الأخير من ذلك الأسبوع دخل علينا المدرّس نفسه، وقد أمرني بالوقوف وقال لي:

- أريدك أن تشرح لي بالتطبيق كيف تكون الصلاة؟

وعلى الرغم من أنّ الحصّة كانت مادّة التفسير، وليس لها علاقة بمادّة الفقه إلّا أنّني لم أرفض طلب المعلم، وقمت صاغراً ذليلاً دون

إدراك لما أفعل، وشرحت وطبّقت له ما أعرفه في الصلاة، لم يكن مقتنعاً بما رأى، لقد كان يتوقّع أن أصلّي بطريقة غريبة بخلاف ما هو معروف لدى كلّ المسلمين، وبشكل مفاجئ رفع من صوته مرّة أخرى وقال:

- هل ما زلت مصرّاً على أنّك من الساحل؟

كان قلبي ينبض بقوّة ولم أشعر بمثل هذا الخوف والرهبة، تجمّعت الدموع في عينيّ وكدت أن أبكي، إنّ ممارسته لهذا الضغط النفسيّ الكبير تجاهي أمر أنهكني كثيراً، وظللتُ في تلك اللحظات الصعبة أسأل نفسي ما الفرق عند المعلّم بين الهضبة والساحل؟ أليست أماكن مجهولةً بالنسبة إليه، ما هذا المكان الذي يجعله يقسو عليّ بهذا الشكل؟ ما الغاية التي يريد أن يصل إليها؟! نظر إليّ وهو يضع يديه خلف ظهره وقال:

- هذا لا يهمّ فأنا أعرف من أيّ العائلات أنتم في الهضبة الجنوبيّة؟ وأعلم جيّداً ما فعلتموه من أعمال لغسيل عقول الناس، وأعرف معتقداتكم الـ ...

لم يكمل حديثه، لقد تركني أنا والطلاب في حيرة وتساؤل حول طبيعة ما فعلته عشيرتي بأهل الهضبة الجنوبيّة.

لا أدري أأفرح أم أحزن تجاه معرفته بي؟ ولكنّ الحصار النفسيّ وعدم إكمال اتّهاماته، أخذا مني مأخذاً قاسياً للغاية.

إنه شيء لم أشعر به كهذا من قبل، ركبتايَ ترتجفان، وألم بطني يزداد، ولم أعد أجيد التفكير بما سأفعله، وكنت أفكّر بالخطوة التالية التي سيتّخذها نحوي.

لكنّه تحوّل فجأة عن الموضوع، وكأنّ شيئاً لم يكن ورجع بنا لمادّة التفسير، أمّا أنا فقد خفضت رأسي على الطاولة، ما هذه الكذبة التي تفوهت بها لتتسبّب في كلّ ذلك؟! هل يمكن أن تكون سبباً في خفض رأسي وفي ارتباكي الذي زاد من ملاحظات الطلّاب حتّى بدأت أسمع التساؤلات؟ أحدهم يهمس في أذن زميله:

- ما هذه العائلة التي تكلّم عنها المعلّم؟ هل أفرادها من قطّاع الطرق، أم من اللصوص، أم من المجرمين؟

شعرت بأنّني في موقف لا أُحسد عليه، الكلّ يريدون أن يعرفوا من هي هذه العائلة وما هو ماضيها، لقد استطاع المعلّم أن يفجّر طاقة الفضول لدى الطلّاب ولديّ شخصيّاً، حتّى أنا ظللت أتساءل عن هذا الماضي الذي لا أعرفه.

أخذ الوقت يمشي ببطء حتّى ساعة مغادرتي من المدرسة، كان الطريق طويلاً جدّاً برغم أنّ منزلنا يبعد بضعة شوارع بسيطة، هل أقول لوالدي عن هذا الموضوع؟ أم أواجه مصيري وحيداً؟ مضت الإجازة الأسبوعيّة دون أن أقول شيئاً، ولكنّي أعرف أمّي جيّداً فهي تقرأ ما في وجهي، وما يعتلج في صدري من خلجات، إنّها

كاهنة، لا أشكّ بأنّها لو لم تكن أمّاً لي لكانت من أشهر الساحرات في العالم، سألتني مراراً عمّا إن كان هناك شيء يضايقني، أو إذا كنت قد تشاجرت مع أحد في المدرسة، ولكنّني قلت لها: إنّي أعاني من اضطرابات معويّة، وهو أكثر عذر قد سمعته أمّي منّي طوال حياتي، أمّي حبيبتي لا تعلم بأنّ أكاذيبي ما زالت تحاصرني.

بدأ الأسبوع السادس ثقيلاً، وكأنّ عقارب الساعة قُيّدت بأغلال ثقيلة، كانت إشارات هذا الأسبوع جليّة في طريقي إلى المدرسة، ولأنّ الناس في مسقط رأسي في الهضبة يؤمنون بالفأل، كنت قد لاحظت في طريقي كلباً مدعوساً تحت عجلة سيّارة، وأصوات غربان أسمعها ولا أراها ولكن يبدو أنّها خلف تلك الأشجار التي تظلّل الشارع.

أتذكّر أنّهم كانوا يفسّرون هذه الأحداث الطبيعيّة ويسقطونها على ما ينتظرنا في المستقبل، لا أتذكّر تأويلاتهم لها ولكنّها تتعلّق بالمشكلات والكوارث، بأشياء لن تحبّذ إطلاقاً أن تكون من جدول أعمالك اليوميّة ولا القادمة.

دخلت الصفّ دون أن ألقي حتّى السلام، الطلبة في الشقّ الأخير من الفصل ينظرون تجاهي ويتهامسون، كنت أقول في نفسي إنّها تخيّلاتي فقط، لا أحد يقول عنك شيئاً، لقد تركني المعلّم اللعين ابن اللعينة أحدّث نفسي وأهذي.

مرّت الحصص الأولى بهدوء، إلى أن حان موعد الحصّة الخامسة وكانت لمادّة الرياضيّات، وقبل دخول المدرّس، وضع أحد الطلبة الذين يرتدون الرداء القصير وجهه في وجهي وقال لي هامساً:

- لماذا لم تخبرنا بأنّك من شيعة الهضبة الجنوبيّة؟

شكّل ذلك السؤال صدمة لي، وقلت في ردّ فعل سريع:

- أنت تكذب أنا سنّيّ من الساحل، ومن أين أتيت بهذه المعلومة؟

- مدّرس التفسير أخبرنا عندما سألناه، وأنت تعرف أنّه مدرّس وقبل أن يكون مدرّساً فهو رجل دين ورجل يخاف الله ولن يكذب، لا تخف قل بأن ذلك صحيح، أم تحاول إخفاء حقيقتك كما أخبرنا المعلّم مثلما يفعل الشيعة جميعهم وتسمّون ذلك تُقيا، وكما قال المعلم بأنّه بحث عن اسم عائلتك، ووجد أنّ عائلة جدّك من البيت الشيعيّ نفسه الذي يتزعّم الطائفة.

- لا أعرف هؤلاء، وأرجوك ابتعد عن وجهي.

دخل مدرّس الرياضيّات، ووبّخ الطالب وأمره بأن يعود إلى طاولته وكرسيّه.

بدأ المعلّم الدرس وعقلي يفتّش عن طريقة للخروج من هذه المصيبة، إنّ الأمر أصبح خطيراً للغاية.

في مدينتي في الهضبة الجنوبيّة أفتخر أن أكون من هذه الطائفة، وبأنّ هذه العائلة العريقة عائلتي، أمّا هنا فأنا أنكر انتمائي لها لأعيش بسلام، حتّى أبواي ابنا هذه الطائفة وهذه العائلة يطالبانني بإنكار هذا الأصل ليحافظا عليّ.

أخذت أندب حظّي وألوم نفسي، منذ الصغر وأنا مكشوف، خيبتي تظهر على معالم وجهي، ليتني أمتلك موهبة إخفائها على الجميع، أو أن أختفي من المشهد تماماً، إنّ كلّ هذا أكبر منّي.

لم تكن قصّتي قد انتشرت في الأسبوع السادس بشكل كليّ، ولكنّ عدداً من الطلبة المنتمين إلى جماعة التوعية الإسلاميّة، وهي جماعة تحت إشراف مدرّسي المواد الدينيّة كانت تعلم حقيقتي التي كنت أجهلها في حينها.

ظللت أتحاشى الأحاديث، وأتقصّد مغادرة الفصل، أردت أن أتلاشى عن الأنظار لعلّ الأمر يُنسى مع مرور الوقت، ويبدو أنّ ذلك ساعد في انتهاء الأمور في هذا الأسبوع الظلاميّ دون أن يتعرّض لي أحد.

كان الوضع مأسويّاً بشكل أكبر مع إجازة الأسبوع، فهيئتي مكشوفة أمام أمّي وأبي، ولأنّني ورثت العناد منهما، فلقد صممت على ألّا أبوح لهما بشيء، لعلّ ما انتهى به الأسبوع الماضي يستمرّ إلى

بداية إجازة الفصل الدراسيّ الأوّل، لم أعد أريد أحداً يحدّثني أو يكلّمني طوال الفصل الدراسيّ.

دخلت الصف بتكتيكي السابق، وهو أن أخفي ما استطعت من ظلّي قبل ظهوري ولكن الأمر بدا كارثيّاً، فأمري قد انتشر بين الطلّاب وهذا ما خالف توقّعاتي.

وُضع على طاولتي في الحصّة الأولى ورقة مكتوب عليها: اعترف يا شيعيّ، احمّر وجهي غضباً، وأخذت الورقة وظللت ألتفت لأتعَرَّف على وجه من كتب هذه الورقة، ودون أن أعرف الفاعل سألتهم بصوت مرتفع:

- من الحقير الذي كتب هذه الورقة؟

لم يجبني أحد، أخذت الورقة وذهبت بها إلى المدير لكيلا يتطوّر الوضع، ولأنقذ من نفسي ما يسعفني إنقاذه منها.

قرعت باب المدير واستأذنت بالدخول، قال لي بشدّة وحزم:

- ماذا تريد؟ ولماذا لست على طاولتك وفي حصّتك؟

- أجبته بارتباك وخوف: هناك من وضع هذه الورقة على طاولتي وأنا لا أريد افتعال المشكلات مع أحد، فأنا لست كما يزعمون.

- ضحك المدير وقال: أخبرهم هل أنت شيعيّ بالفعل؟ هل أنت خائف من شيء؟

سكتُّ لبرهة لعلّي أستوعب ما قاله لي بسخرية، لكنّه لم ينتظر إجابتي فصرفني من مكتبه وقال: أنا سأتصرّف.

وفي الحصّة السادسة من اليوم نفسه دخل المعلّم الكارثة، ابن اللعينة الذي شحن زملائي عليّ، لقد دخل ليغرس ما بقي من أنيابه في جسدي الوديع.

لقد ظلّ يلمّح بالأحاديث عن الشيعة وطقوسهم الغريبة التي لم أشاهدها في حياتي، ولم أمارسها ولم أرَ أهلي قبلي يمارسونها، لم يكن يوجّه الكلام لي، ولكنّ الطلبة كانوا يعلمون بأنّي المقصود من كلّ ذلك.

كان يقول بأنّ هذه الطائفة أشدّ من الكفر والنفاق، وأخطر على الأمّة الإسلاميّة من اليهود والنصارى، تحدّث عن زواج المتعة وقال: إنّ رجالهم ونساءهم يتزوّجون بغرض المتعة الجنسيّة، وما أن تنتهي هذه المتعة ينتهي معها أمر هذا الزواج، تخيّلت في تلك اللحظة أنّني ابن متعة جنسيّة ابن نشوة جنسيّة عابرة، وزعم أنّه في ليالي الإفاضة وهي ليالٍ معيّنة في السنة يجتمع جميع رجال الشيعة مع جميع النساء ويختلطون في خيام سوداء وكلّ رجل يتناول ما يقع تحت يده من إناث ليمارس معهن الرذيلة.

ولكنّي أعرف أمّي وأبي منذ أن وُلدت ولم يسبق لهما أن افترقا بعد زواجهما، كما أنّني في الهضبة لم يسبق لي أن سمعت هذه الأمور،

فمجرّد أن تتعرّف إلى فتاة لا تربطك بها صلة رحم تكون في عداد المفقودين، وفي أحيان تكون في عداد الموتى إن كُشف أمرك للملأ، فالعادات القبليّة هناك لا تسمح بمثل هذه الأمور الغريبة والمنحرفة.

هذه الاتّهامات جعلت جسمي يقشعرّ، لم يسبق لي أن شعرت بالعار كهذه المرّة، ما هذه الأفعال؟! ولماذا تصبّ جميعها في الجنس والمرأة فقط.

تحدّث عن صكوك الغفران التي يمنحها شيخ الشيعة للناس ليدخلوا الجنّة، وكأنّ هذه الجنة عبارة عن قطعة أرض في مكان ناءٍ في السماء، وكلّ ما عليك فعله هو عمل كل تلك الرذائل السابقة وتقديم فروض الطاعة العمياء لهذا الشيخ عندها سيمنحك ورقة مكتوباً عليها أن صاحب هذه الورقة قد ضمن مقعداً له في الجنة جزاء ما قام به من أفعال حسنة.

كما أنّه قال شيئاً لم أتصوّر فعله، حتّى إنّ علامات الذهول بدت على طلاب الصف، لقد قال بأنّ الزواج لا يتمّ بين عامّة الناس ما لم يُدخلوا الفتاة على شيخهم ليجامعها ويفضّ بكارتها، آخر مرّة شاهدت فيها شيخ الهضبة كان بعمر التسعين منحني الظهر، فما هي القوة الخارقة التي يملكها، للإطاحة بعذريّة فتاة؟!

وختم حديثه باتّهام لا يقلّ غرابة، حيث قال: إنّ هؤلاء الشياطين يقطعون يد الميّت اليسرى لكي لا يستلم كتابه يوم القيامة

بيده اليسرى، وإنّما بيده اليمنى، ورفع المعلّم من صوته وقام يرتّل آيات الوعيد التي وعد الله بها الكفّار والمشركين والمجرمين، كنت أشعر بأن الجميع ينظرون لي.

موقف لا يوضع فيه الأعداء فكيف بطفل عالق في حرب وممارسات وأكاذيب لا علاقة له بها.

وبينما كنت أفكّر في كلّ هذه الأشياء التي لم يسبق لي أن رأيتها في حياتي القصيرة ولم أسمع بها من قبل، رمى أحد الطلبة ورقة ملفوفة عليّ كُتب فيها: أنت المقصود من حديث المعلّم، لم ألتفت إليه وكأنّ شيئاً لم يكن.

أضع المبررات لنفسي فإنّني أنتظر المدير أن يتّخذ إجراءً ضدّ هذه المضايقات التي أتعرّض لها، انتهت الحصّة الأخيرة من هذا اليوم البائس، وقرّرت أن أغادر المدرسة بسرعة البرق.

تردّدت كثيراً بخصوص جعل أمّي وأبي يقومان بدورهما لحمايتي، ولكن ظلّ الإصرار يدبّ في جسدي وتفكيري، فأنا قادر على تجاوز هذه المحنة، كلّ ما أنتظره هو أن يتحرّك المدير، عندها ستنتهي هذه المشكلة نهائيّاً.

حديث المعلّم ظلّ يتردّد في أذني، في عقلي الصغير داخل جمجمتي المكوّرة فعقلي لم يستوعب كلّ ما قيل وما يحدث، إنّه شيءٌ يشبه الخيال، حتّى بعض الأفلام التي كنت أشاهدها في القناة التلفزيونيّة

الثانية لم تصل لهذا الخيال الخصب، إنّي أتمرّغ في وحل الحيرة، لقد جعلني المعلّم أنظر لأمّي كعاهرة سبق لرجال أن تداولوها بينهم، بينما تخيّلت أبي كزانٍ وديوث لا يملك من الشرف ولا القيم شيئاً يُذكر، عصف المعلّم بذهني، فلم أعد أعرف أهلي ولا حتّى مسقط رأسي.

ما كلّ هذه الأوهام والأخيلة، صوتي الداخليّ يقضّ أوهام العقل ويبدّدها، إنّه لكاذب، فأمّي أطهر نساء الأرض وأبي أشرفهم، فهل يُعقل أنّي أصبحت كمن لا يعرف أنّ أهلي ومدينتي أفضل من وُجد في هذه الأرض؟!

إنّ هذا المعلم اللعين يستغلّ جهل الناس بما لا يعرفونه لكي يفرغ ما في عقولهم ويقودهم لمراده، ولكن لماذا أنا بالتحديد.

في بداية اليوم الأوّل من الأسبوع التالي، وبلا شعور منّي وضعت رأسي على الطاولة وكنت أبكي، لم أستطع أن أخفي خوفي من نظرة الطلّاب ولم أعد أحتمل هذا الضغط الذي يمارسه المعلّم والطلبة ضدّ طالب أعزل، لا حول له ولا قوّة.

كنت أراهن على المدير الذي سيقول كلمته إنّني واثق من عدالته، مرّ اليوم التالي دون أن يتحرّك المدير، وفي يوم الأحد، قرّرت أن أدخل عليه بعد أن وجدت رسومات على طاولتي وكتابات، طرقت الباب وكان قلبي ينبض وتتسارع دقّاته وقلت للمدير:

- إنّي أعاني.

كنت أنظر للمدير كيتيم في العراء، كحدث مأسويّ، كنت أتعتع أتلعثم أشير بإصبعي السبّابة إلى ناحية الفصل، كان الهمّ والضيق يجوّفان صدري ويخرجان بدلاً عن الهواء هواء رطباً يشبه الأوكسجين، قلت له بصوت يرتجف:

- إنّ هؤلاء المشاكسين لم يكفّوا عن مضايقتي، وأنت لم تفعل شيئاً.

تسلّلت الدموع من عينيّ، دموع طفل لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره.

لم تؤثّر دموعي في مشاعر المدير، كان يمضغ السواك العريض في فمه الكبير عندها وضعه على الطاولة، وحدّق فيّ بابتسامة صفراء ملوّثة، ولم يقل كلمة وكأنّه توقّع مجيئي.

تناول أحد الأقلام من الحزمة الموجودة أمامه على الطاولة، أخذ ورقة رسميّة، وكتب عليها عبارات كثيرة ثم وقّعها وختمها ووضعها في ظرف بريديّ، وقال لي:

- سلّم هذه الورقة لأبيك، وإيّاك أن تفتحها، ولا تعد إليّ إلّا بوجود وليّ أمرك برفقتك.

أمرني بالانصراف وكأنّني جنديّ أخفق في مهمّته، وينتظر محاكمته العسكريّة.

أخذتها مصدوماً، لم يسبق لي أن عشت في تيه كهذه اللحظات، ذهبت بهذا الظرف إلى بيتي، تأخّرت في الدخول إلى البيت بعد أن قرّرت للمرّة الأولى أن أفكّر فيما سيحدث.

دخلت في إحدى أسطوانات أعمال البلدية الضخمة والمركونة على رصيف الشارع قبالة البيت، كان لهيب الحرارة لا يُطاق، ولكنّ التفكير فيما هو قادم كفيل بأن يجعلني أمشي على الجمر إذا تطلّب الأمر ذلك.

تخيّلت ما قد يحدث جيّداً، وجدت أنّه ما زال هناك مجال بألّا أدخل أبويّ في هذه المشكلة، فأنا لا أريد أن أخسر ثقتهما بي، ولا أحبّ أن يراني أهلي عاصياً، وغير منفّذ لأوامرهم التي لم أتقيّد بها، قرّرت أن أواصل عدم إشراك والديّ فيما حدث، كنت أمام مطرقة الرسالة وما فيها من مجهول، وبين سندان عدم تقيّدي بما أوصاني به أبي، كنت أعلم جيّداً ردّة فعل أبي عندما يشعر بأنّني عصيت أوامره، حتماً سيضربني بلا رحمة وسيمزّق جلدي، وأنا لا أتحمّل الضرب في جسدي ولا أتحمّل كلّ هذا الضغط النفسيّ.

ذهبت إلى البيت، جلست على وجبة الغداء، ظلّ جسمي يرفض الطعام، أحشو الطعام في حلقي، كي لا تشعر أمّي بشيء، كانت تنظر إليّ باستمرار، وكأنّ عينها اللطيفة والثاقبة ترى جسدي تحت أشعة الإكس ري، مكتشفة أنّ الطعام لا يهبط إلى معدتي إلّا بصعوبة.

جلوسي الطويل مع والديّ دون أن أفارقهما طوال ساعات اليوم، طوّر لديهما حاسّة الفهم الجيّد لكلّ ما يُصيبني، وملاحظة أيّ طارئ يعتلي حركاتي أو تعابير وجهي.

دُفعت عجلة الساعات للمقدّمة، انتهى هذا اليوم الذي لا يقلّ سوءاً عمّا قبله، قّررت أن أذهب للمدرسة، مع علمي بأنّ المدير حذّرني من القدوم للمدرسة دون وجود أبي.

مشيت بين الطوابير وزحمة الطلبة كقاتل متسلّل، دخلت الصفّ دون حركة منّي، مرّت الحصص بسكون تامّ، لأوّل مرّة لم يكن يعني لي الكثير شرح المعلّمين للدرس، وفي دخول مهيب دخل المدير إلى الصفّ وبعد أن قرأ اسمي في كشوفات الطلبة الحاضرين، ومرّت لحظات قليلة وجدت نفسي في قبضة المدير، الذي رفع العصا عالياً ووجّهها تجاه فخذي الأيمن.

عدّة ضربات متتالية وسريعة، بينما كنت كالخرقة في الهواء تتلاعب بين يديه، صرخ بشكل هيستيريّ وكان غاضباً جدّاً، بينما تحوّل الصفّ إلى مزيج من الصمت وأصوات الضحكات المكتومة.

- ألم أقل لك لا تعد إلى المدرسة إلّا مع وليّ أمرك.

تيبّست شفتاي كما لو أنّني أبكم، وأخذت يداي ترتجفان، تذكّرت في تلك اللحظة أحد ذنوبي التي تُرجمت على يد المدير عندما ضحكت في نفسي أمام والديّ وقلت إنّهما لا يعرفان إلّا ما هو محيط

بهما، وقلّلت من معرفتهما بما سيحدث. ندمت لأنّني لم أجعل أبويّ يحمياننني من هذا الفيضان الذي اجتاحني.

بعد ذلك دفعني المدير خارج الصفّ، وركنني على أحد الأعمدة في منتصف الساحة رافعاً كلتا يديّ إلى الأعلى لأكثر من ثلاث ساعات بلا حول لي ولا قوّة.

لقد وضعني في الساحة كعبرة، كخائن أو جاسوس يُطاف به في ضواحي المدينة المنكوبة، لم يكن الأمر يستحقّ أن يقال اسمي، أو أن يُعرّف المدير الطلبة بي، أو بالذنب الذي اقترفته.

في تلك الأوقات كان الخبر بأنّي شيعيّ قد انتشر في المدرسة كورم سرطانيّ خبيث عندما يدبّ في الأجساد بأقصى سرعة لديه، كنت أرى الأوجه الصامتة وهي تشمت بي، مرّ صديقي الثرثار والذي قرأت أفكاره من نظراته، لقد كان يقول في قرارة نفسه: لقد كانت أمّي محقّة حين منعتني من الحديث مع هذا المسخ، رأيت في صغري وأنا في ذلك العمر كيف أن الأصدقاء يتحوّلون إلى أعداء لذنب لم نقترفه يوماً.

ظللت واقفاً كلّ ذلك الوقت، دون أن أشعر بجسدي، لا يوجد شيء في هذا الكون باستطاعته أن يصف ذلك الجمود الذي أصاب تفكيري.

وفي النهاية أمرني المدير بعد ساعات من العقاب بالانصراف إلى بيتي بعد الحصّة الأخيرة من اليوم الأخير في الأسبوع الدراسيّ.

انهارت قواي أمام البيت كأنّني قد قطعت مئات الأميال بقدميّ الصغيرتين.

لم أتحدّث مع أمي ولم أقبّل يديها كعادتي، جعلتها تبدو كشريكة فيما حدث، كانت تسألني عن حالي في هذا اليوم، كرّرتِ السؤال عن حالي عدّة مرّات، لم يكن حالي سيّئاً من قبل كما هو حالي الآن، ولم أجبها.

ذهبت لفراشي وأخذت عيناي تدمعان بحرقة، دخل أبي من عمله المنهك والبعيد منهار القوى، وتساءل عن غيابي عن الوجبة، فقالت له أمّي بصوتها الخائف:

- إنّه ليس على ما يرام لا تتهاون بالموضوع ككلّ مّرة أحدّثك فيها، إنّني متيقّنة من أنّه يخفي شيئاً لا نعرفه، فأنا أعرفه جيّداً.

بكت أمّي وحضنها أبي، ولكنّه طمأنها بأنّنا يجب ألّا نشغل بالنا بشكل مبالغ فيه بكلّ شيء يحدث لطفلنا، سأثبت لكِ أنّ الأمر لا يستوجب كلّ هذا الخوف.

كعادته صدح أبي بصوته منادياً اسمي، وبينما أنا طريح الفراش فإذا بأبي يناديني مرّة أخرى بصوته الجهوريّ، في الأوقات العاديّة كان صوت أبي العالي بمثابة حالة طوارئ، لكنّي لم أجبه كذلك،

فذهب إلى غرفتي وعندما رأى حالي خفّض من حدّة صوته، وبدا أكثر عطفاً من قبل، كنتُ كأنّي خشبة منسية في إحدى الغابات الجافّة، لا أقوى على النهوض من فراشي، لأنّني لم أعد أعرف شيئاً.

- ما بك؟ ما الذي حدث لك؟ أمّك تخبرني بأنّك لست على طبيعتك في الآونة الأخيرة.

أنزلت الغطاء عن وجهي، وأعطيت أبي رسالة المدير التي كنت أخبّئها تحت وسادتي، وقلت له بصوتي الحزين والمقهور:

- يقول المدير بألّا أعود إلى المدرسة إلا بصحبتك، ولم أخبرك بهذا في الأمس، وهذا اليوم ذهبت للمدرسة فقام بضربي أمام الطلبة، وإيقافي لثلاث ساعات في الساحة.

استنزافي الكبير للشهيق والزفير خلال هذا اليوم وسّع من قفصي الهوائيّ، إلى درجة أنّني كنت أتوقّف بين كل كلمة وكلمة لآخذ شهيقاً وكأنّ هنالك فراغاً يجب أن أملأ به جسدي بالهواء الضروريّ، كنت في حال يُرثى لها.

شرحت له ما حدث من المعلّم والطلبة منذ الأسابيع الأولى، وضع أبي يديه متشابكتين خلف رأسه، وكأنّ عقله سيُشلّ ممّا حدث لي وبدا مستغرباً غاضباً، وكأنّه بركان خامد في طريقة للانفجار.

أخذ أبي الظرف وفتحه بحركة واحدة، قرأ النصّ أكثر من مرّة،

وتثبّت من أنّي لم أفتح الرسالة، ابتسم لي وحرّك رأسه كمن يتوعّد بالانتقام.

قام وأمرني بالوقوف وحضنني إلى صدره، وقال لي: لا عليك، وسرد لي في حالة من الرضا ولكي يخرجني من الضغط بعض القصص والمواقف الصعبة التي تعرّض لها في حياته، والتي استوجبت منه السكوت، وكبح الغضب وأخبرني بأنّ الله كان في الموعد ليأخذ بحقّه من كلّ شخص ظلمه، وقبل أن يخرج قال لي:

- سأذهب بداية الأسبوع القادم، وأجد حلًّا لهذه المشكلة؟

اعترفت لوالديّ بأنّي لم أتقيّد بما قالاه لي، وكنت أعتقد أن الطلبة والمدرسة لا يعنيهم مدينتي وأسرتي، انتظرت ردّة فعل أبي الغاضبة ولكنّه صمت طويلاً كذلك الصمت الذي رافقه عندما كنّا في طريقنا إلى المدينة الكبيرة، نظر إليّ كمن ينظر لرجل في مثل عمره وقال لي:

- لا عليك، أنت لم تقم بخطأ يستوجب أن يفعلوا معك كلّ ذلك، جميعنا نكذب لنسلم من الأخطار، فأنا وأمّك أمرناك بأن تكذب لتسلم، وعندما كنت كما أنت وكما هي حقيقتك عاقبوك، إنّه التمييز والإقصاء عندما يكون أسلوب حياة، إنّ التعصّب والجهل يجعلان المتطرّف دائماً لا يعي ما يفعل، حتّى لو كان على حساب تدمير حياة طفل بذنب لم يقترفه.

نظر أبي في وجهي بشيء من الفخر وقال:

- عِدني بأن تتقيّد بكلّ ما أقوله لك، بكيت ثم ارتسمت على وجهي ابتسامة بريئة في آن واحد ووعدته بذلك.

حاولت عائلتي إيجاد أجواء تبعدنا عمّا نحن فيه، كان هدف العائلة أن ترفّه عنّي أن تنسيني ما قد مررت به، وفي الوقت نفسه يأخذ أبي وقته كي لا يخطئ في قرار قد يتّخذه. اتّصل أبي بصديق له ليستدين منه بعضَ المال، وقَرَّرنا الذهاب إلى مدينة مجاورة تبعد عنّا مسيرة أربع ساعات.

كانت الرحلة جميلة تجمّع فيها أقاربنا، ولكنّ الأجواء بدت وكأنّها مصطنعة ومتكلّفة، لطالما كنت أنظر لوجه أبي وأمّي طوال الرحلة، حتّى وإن علت الابتسامة ملامحهما، لكنّني كنت أرى خيبتي، خيبة العجز عن فعل أيّ شيء، ولا حتّى أن تساعد نفسك بعدم جرّ أهلك لهذه المشكلات.

لأوّل مرّة أشعر بأنّي عبء على والديّ، وبأنّني أزمة تتعبهما بالإضافة إلى الأزمة الماليّة والمعيشيّة، وعلى رأس كلّ الأزمات ما نعرفه جميعنا الغربة، إنّ غربة أبويّ ليست كالتي في الأغاني، ولا الأفلام ولا حتّى القصص، غربة حافّة الهاوية، الخطأ فيها وإن لم تكن تقصده فذلك قد يكلّفك حياتك.

واصلت أمي إبداعاتها المتفرّدة، ماذا لو أنّ أمّي متعلّمة وسمح لها المجتمع في ذلك الزمان بإكمال دراستها، فلا شكّ لديّ بأنّها ستصبح عالمة كيميائيّة تحلّ المعادلات المعقّدة، وتبتكرها لتحوّل المعادن البسيطة إلى معادن ثمينة، من المؤكّد أن المجتمع أخطأ في كبح جماح هذه الثروة.

وعلى الرغم من أنّها لم تتعلّم فما زالت هذه الموهبة لديها فهي تحوّل الأوقات السيّئة والعادية وذات الرتابة العالية إلى متعة ومرح وسرور، إنّه سحر أمّي الخاصّ.

كانت تتخلّل هذه الأوقات ومضات من التفكير حول ما ينتظرني في المدينة الكبيرة حال عودتنا، قناعة الأوقات السعيدة لم تستطع أن تخفي الوجه الحقيقيّ للأزمة.

تركني أبي مع أمّي في لحظاتنا الأخيرة وذهب ليجتمع مع أقاربنا، تردّد أبي في أن يأخذ بنصيحة أقاربنا بشأن ما حدث لي ولكنّه في النهاية حزم أمره على أن يخبرهم ويأخذ بنصيحتهم، قصّ عليهم ما حدث وأسهب ونصحوه بألّا يصطدم معهم:

- اسمعنا جيّداً من الأفضل أن تبعد ابنك عن هذه الأجواء ما استطعت، وأن تهرب به من هذه الأخطار المحدقة، فأنت لا تعرف ما الذي باستطاعة هؤلاء الناس أن يقوموا به.

صفة العناد الموغلة في جينات أبي صوّرت له الأمر بأنّه تحت السيطرة، لقد كرّر الأقارب عبارات التحذير لأنّهم يعرفون أبي الذي كان أقرب أبناء جدّي شبهاً له في طبائعه.

ومن أعماق أبي يصدر صوت صدريّ موغل يناديه بأن يتنبّه، ويعطي الأمر ضرورته القصوى، هذا الصوت رفع علامات التحذير لأقصى درجة، ولكنّ الطبع عندما يطارح المنطق وحقيقة الأشياء قد يتغلّب على أيّ شيء سواه.

عاد أبي لاصطحابنا في رحلة العودة، ما زلنا نتذوّق طعم ذلك الصمت نفسه، وكأنّه تحوّل إلى وجبة روتينيّة لدينا، شيء يرافقنا أينما حللنا.

أبي وأمّي في المقاعد الأماميّة من السيارة، وأنا وحيد في الخلف ورؤوسنا تتّخذ الشكل نفسه المائل قليلاً إلى اليسار، كنت أتمنّى لو أنّني رسّام أجيد الرسم التكعيبيّ، كنت سأرسم لوحة تحمل عنوان عائلة البؤس، سأجعل للصمت لونه الخاصّ الرماديّ القاتم.

وصلنا إلى لمدينة البعيدة في وقت متأخّر، نمنا في قلق وكأنّ بيتنا في مرمى معركة حربيّة طاحنة، ومع ساعات النهار المشرقة والحارقة في الوقت نفسه، سلكنا طريقنا إلى المدرسة.

دخلت مع أبي بعد أن طرقنا الباب على المدير، لم يعرف المدير أبي ولكنّه عندما شاهدني عرف أنّ من يقف بجانبي هو الرجل المنتظر،

داهمني شعور الفخر، كنت أحاول الوقوف على أصابع قدميّ لكي يراني المدير بجانب والدي.

صافح أبي ومن ثمّ قام وأغلق الباب، وسأل عن حالنا وأحوالنا، ثمّ عدّل المدير من وضعيته في الجلوس على مكتبه

- سأدخل في صلب الموضوع فلديّ أمور كثيرة أريد أن أنتهي منها.

يتحدّث كوزير أو مسؤول رفيع المستوى، ظلّ يداعب القلم الذي بين يديه، عرف أبي أنّ هذه علامة ارتباك، لقد فهم الطريقة التي يريد أن يحدّثنا بها المدير.

- هناك أشياء لا يستطيع المدير أن يتعامل معها، فهي خارج إرادته، وابنك أحد تلك الأشياء، أحبّ أن أكون صادقاً، هناك مجموعة لا أستطيع الوقوف في وجهها وإن كنت أعتبر نفسي منهم، ولكنّ العدل في بعض القضايا ليس حلًّا على الإطلاق، أنتم عائلة ذات خلفيّة دينيّة تختلف عمّا هو سائد في هذه المدينة، وأنت تعرف أنّ هذا من الأشياء المهمّة والحسّاسة لدينا، وتقديراً لسلوك ابنك في الفترة الماضية سأساعدكم في الذهاب إلى أيّ مدرسة تختارونها، ولكن قبل كلّ ذلك يجب أن توافق على نقل ابنك بناءً على طلبك، فقاطعه أبي بحزم شديد:

- للأسف لقد تمّ وضع الثقة بكم، وللأسف أنّكم تربويّون، نضع أبناءنا لديكم لتحموهم وتعلموهم، وبدلاً من أن تتّخذ موقفاً وتعاقب كلّ شخص تجرّأ على إيذاء طفل لا علاقة له بكلّ هذه الأمور، تأتي بكلّ ما تعني الوقاحة من معنى لتقف في صفّهم وتمنحهم الغطاء لما اقترفوه بحقّ ابني، وأنت مؤتمن على هذه المدرسة وعلى الطلّاب الذين يتركهم أهلهم لديكم لتعليمهم وتهذيبهم وليس لتعذيبهم، ألا تخاف أن أتقدّم بشكوى ضدّك لدى المؤسّسة التعليميّة العالية؟ هل تعلم ماذا سيفعلون بك؟

أجاب المدير بسخرية:

- أنا لو كنت في موقفك لما قلت هذا الكلام، فمن الغبيّ الذي سيشهد معك على هذه التجاوزات؟ كن ذكيّاً واحمِ طفلك أنت وغادرا، فأنا لو كنت في مكانك فلن أجلس في مكان لست بمرغوب فيه لا أنا ولا ابني، أمّا بالنسبة لمهامي فأنا أقوم بها على أكمل وجه وصورة، فكما ترى مدرستي من أفضل مدارس المدينة بشهادة المؤسّسة نفسها، وهذه السنة الثانية التي أُكرّم فيها على التوالي، فتميّزي في عملي شيء مفروغ منه، ولا أحتاج من شخص أن يشهد أو يوافق عليه.

سكت قليلاً بعد أن استشعر أنّه كاد أن يرتكب خطأً جسيماً

- عذراً.. وأكمل حديثه:

- ولكن مثلما قلت لك هنالك أشياء خارج إطار سيطرتي، ولا أستطيع القيام بهذه المهمّة من أجلكم.

خفض المدير صوته وكأنّه يقوم بعملية ابتزازيّة.

- لكنْ هناك خيار يتيح لنا تجاوز كلّ هذه العقبات، وعندها سأسخّر كلّ خدماتي ومعارفي لأن تتحسّن أوضاعكم وهذه هي فرصتكم الوحيدة.

سأل أبي مستغرباً..: ما هذا الخيار؟

- أن تتحوّلوا من مذهبكم الضلاليّ إلى عقيدتنا الصحيحة.

أدرك أبي أنّ إصلاح الأمور غير مجدٍ بعد أن سمع وتذّوق كلّ كلمة قالها المدير.

تحوّلت عينا أبي إلى جمرتين متّقدتين، لم أرَه بهذه الثورة من قبل، قام أبي عن كرسيّه الخشبيّ المقابل للمكتب، وفي حركة سريعة منه تناول رقبة المدير ليرفعه عالياً ويعلّقه على الحائط، خمس ثوانٍ والمدير يحاول التخلّص من القبضة التي ظلّت تخنقه، وتحوّل صوته إلى ما يشبه فحيح الأفعى.

- اسمعني جيّداً يا هذا، لقد تجاوزت بضربك المجحف ابني كلّ الأخلاقيّات والسلوكيّات التربويّة والاجتماعيّة وأهنته أمام الطلبة

بلا وجه حقّ، ويبدو أنّك تعتقد في قرارة نفسك أنّه لا يوجد أحد يقف في وجهك، وأنت الآن تقدح في ديني، وكنت السيّد والموجّه لكلّ ما تعرّض له ابني، لذلك سأجعلك عِبرة من أجله.

تذكّر أبي نصيحة أقاربنا له بأن يبتعد عن المواجهة، وتابع:

- ولكنّني سأكون حليماً أكثر ممّا يجب عليّ تحمّله، واعتبر ذلك تهديدي الأخير، واصل المدير محاولته لإعادة هيبته.

كان أبي يقبض على رقبته بيده اليمنى بقوّة، كأنّ أبي يريد أن يكسر شيئاً كبيراً في نفسه، لأوّل مرّة أرى مثل هذا الموقف، المدير الذي تقوم الدنيا عند ذكر اسمه في المدرسة يتحوّل إلى خرقة في مهبّ الريح، هدأ أبي قليلاً وتركه.

كان المدير يصرخ لمن في الخارج لإنقاذه، كان الباب مغلقاً، فتح أبي الباب ودخل المعلمون لإنقاذ مديرهم.

وعلى الرغم من أنّ الأمر تصاعد ووصل إلى الشرطة، إلّا أنّ أبي أنكر قيامه بالتعدّي على المدير، حاول المحقّق تارة بالتهديد وأخرى بالملاطفة أن يأخذ من أبي اعترافاً بما فعله، ولكنّه ظلّ صامداً عند موقفه، والمدير لم يساعد المحقّق بالأدلّة فهو لا يملك شهوداً على ادعائه بالضرب، فمن استدعاهم المدير للشهادة أفادوا بأنّهم لم يروا تعدّياً بالضرب، ولم يسمعوا سوى نداء الاستغاثة الذي أطلقه المدير، وعندما دخلوا وجدوا المدير يرتجف ويقول: إنّ هذا الرجل وابنه حاولا قتله، بينما كنّا جالسين وكأنّ شيئاً لم يكن.

بعد أيّام أُغلقت القضيّة تماماً، ولكن قضيّتي مع المدرسة لم تنتهِ، الجميع في المدرسة عرفوا ما فعله أبي بالمدير، وكان هذا يمثّل انتصاراً للطلّاب على المدير الصارم، من يصدّق أنّ هذا الفتى وأباه استطاعا أن يرميا هذا المدير من قمّة برجه العاجيّ النرجسيّ إلى القاع.

مؤلم أن تنكسر هيبة بُنيت على الشدة والصرامة والتقليل من شأن الآخرين، ما حصل لم يعجب تلك الجماعة، ذهبوا للمدير وعرضوا مساعدتهم عليه، ولكنّنا سبقناهم بالخطوة التي كانوا يطمحون لها.

لقد رحلنا من المدرسة غير مأسوف علينا بالنسبة لهم، كنت أتقاسم المشاعر بين سعيد وغير سعيد، كنت سعيداً بهذه النهاية العنتريّة والطريقة التي أذلّ بها أبي المدير كانت هذه النهاية تمثّل الحلم لأبناء جيلي بأن يدخل وليّ أمر طالب ويكسر شوكة المدير، فسيكون لديّ حديث بطوليّ لما فعله أبي البطل الشجاع المغوار بمدير المدرسة، يا لتلك البهجة وأنا أنطلق ببراعتي في الثرثرة للحديث عن هذا المشهد الهوليوديّ.

أمّا في جانبي غير السعيد فلأنّي كنت أريد أن أكون الطالب المثاليّ، بدلاً من هذا الشكل الذي ظهرت عليه كصعلوك شوارعيّ، ولكن لا أحد يختار النهاية التي يريدها.

فيما بعد فهمت أنا وأبي من ذلك سيناريو الحبكة التي رسمها هؤلاء الأشرار، الجار بعد أن أتاني كناصح كي أذهب إلى المسجد أخذ يبحث عن سجلّات أبي في مكتب العقار الذي سجّلنا عنده

عقد إيجار الشقّة، فكانت الصدمة بعد أن عرف خلفيّتنا المختلفة عنه، وبعد أن تيقن من أنّي أذهب إلى مدرسة الحي القريبة، قام بالاجتماع بعدد من أصدقائه المقرّبين والمشتركين معه في الفكر والتوجّه أنفسهما، ومنهم المدير ومدرّس التفسير الذي بدوره قام بالمهمة الموكلة له بكلّ نجاح، ومن ثمّ اجتمع بالطلبة في حلقاتهم الخاصّة خارج المدرسة.

وبعد مشاورات مجلس النواب الخاصّ بهذه المجموعة تقرّر أن يذهب الموضوع إلى بعد آخر أكثر حدّة، كانوا يتوقعون أنّ هناك ردّة فعل ستصدر منّي أثناء هجوم المدرّس ومحاولات التضييق، ولكنّهم تفاجؤوا بأنّي لم أصدر أيّ ردّة فعل، هم لا يعلمون بأنّي أجبن من أن أتّخذ شيئاً قد يعرّضني للخطر، كما أنّهم لا يعلمون بأنّي هارب من الأوامر التي عصيتها، اقتحموا مكتب المدير وطالبوه بأن ينفّذ ما يطلبونه، وهو ألّا يبقى في المدرسة طالب شيعيّ واحد؛ لأنّ ذلك سيشكّل خطراً على باقي الطلاب، ولكنّ المدير طالبهم بالتريّث والهدوء، ومحاولة إدخالي إلى الإسلام، وذكّرهم بالمكاسب التي سيجنونها من شهرة وسمعة عندما يدخلون عائلة إلى الدين الإسلاميّ الصحيح.

لم تسر الخطة حسب ما هو مخطّط لها وانتهت بهذه النهاية المأسويّة، في الحقيقة إنّها لم تكن مأسويّة بمعنى الكلمة، الحقيقة بكل إنصاف من وجهة نظري أنّ النهاية تبدو لي عادلة لأنّنا تقاسمنا فيها الخسارة.

محاولة الاغتيال.

الفتاة تروي..

بينما كنت مع أمّي في القسم النسائيّ من المحفل نزهو كأزهار الصيف المتفتّحة، كان أبي برفقة إخوتي الثمانية عند بداية مخيّم الرجال الكبير الذي تتصاعد منه مشاعر البهجة، لا يجدر بأبي أن يدخل المحفل وحيداً لكي لا يبدو أمام الناس كورقة خريف سقطت من شجرة.

إنّ قدوم رجل بمثل منزلة والدي العشائريّة غير مصحوب إلّا بأبنائه، وحيداً بلا عشيرته يفتح الأسئلة على مصراعيها، ويترك الإنسان عرضة للتخمينات والتأويلات التي لا تنتهي، كما أنّه من أكبر منازل الحكمة لدينا أن تصافح قريبك المتخاصم معه أمام الآخرين، وتتجاوز عنه لكي لا تترك للآخرين مجالاً للحديث عن العائلة.

في الحقيقة لم يكن هناك أيّ خلافات بين والدي وأفراد عائلتنا الكبيرة فهو مرجعهم وأكبرهم مكانةً لكنّ أبي وبعد بلوغ إخوتي رشدهم كان يحبّ أن يذهب برفقتهم، وهذا الأمر قد راق للجميع في أسرتنا.

تقدّم أبي وإخوتي أمام الناس في المحفل باتّجاه والد العريس، كان أبي ذا هيبة ووقار، يلبس ثوباً قطنيّاً أبيض وغترة بيضاء تدور حول رأسه كأنّها جِرم سماويّ يدور حول أحد الكواكب بانتظام دقيق، ويعلّق على خصره خنجراً كان قد ورثه من أبيه الذي قُتل في إحدى المعارك التي كانت على أطراف المدينة.

كان أبي وإخوتي يسيرون بعضهم خلف بعضهم كأسراب الدبابير العائدة لوكرها، عندها قام الباقون في المحفل مرحبين بكلّ حفاوة، ثم توافد الناس للسلام عليهم مرحبين ومهلّلين، وفسحوا المجال لهم بعد ذلك ليتقدّموا إلى رأس المجلس الكبير.

لقد كان الناس يتوافدون وكأنّهم أمواج بحر، فكلّ مجموعة كانت تأتي بعد ذلك بصفّ منتظم وبحناجر تردّد الأناشيد المقفاة والمسجوعة، كان بعض هذه الأناشيد مرحّباً بالضيوف، والبقيّة منها تحكي مزايا ومفاخر علاقتهم بالعريس، وعلى هامش المحفل كان الناس يتبادلون أطراف الحديث.

وفي لحظة تحوّل المحفل إلى حالة من الترقّب والتركيز، نظر الجميع إلى شخص مقبل عليهم، إنّه رجل كبير في العمر ذو لحية بيضاء منظّمة، وأعين حادّة ويلبس الزيّ الشعبيّ المعروف في المدينة، يظهر التواضع من هيئته البعيدة، قام الجميع مرحّبين به كضيف غريب ولكنّهم لم يعرفوه جيّداً، صرخ أحدهم بحماسة: إنّه

الرئيس الأعلى، أمعن الناس في النظر إليه فإذا صورته بدأت تتّضح في كلّ خطوة.

تحوّلت الأنفاس إلى نفس واحد، وذابت كلّ الأنظار في نظرة واحدة، الجميع كانوا ينظرون باتّجاه واحد، ما هذه المفاجأة الكبيرة غير المتوقّعة؟ قام الناس بكل احترام وإجلال مصطفّين على هيئة رصيف لإفساح الطريق له، ومن كان معه لم يسر بالطريقة نفسها، إنّما كان الرجل يسير بخطوات واثقة متقدّماً الجميع، والبقيّة مبعثرون خلفه، كان الرجل الوقور مبتسماً للناس إلى أن قادوه إلى المكان الذي يجلس فيه أبي وإخوتي فألقى التحيّة عليهم، وصافح والدي فقد كانت له مكانة في نفس الرئيس الأعلى، وبدورهم تنحّى إخوتي عن مكانهم ليتركوه له.

تحوّل الحفل من ابتهاج بالزواج إلى احتفاء بشخص الرئيس الأعلى، كان يحظى بحبّ الجميع بشكل لا يوصف، نهض والد العريس وعشيرته ورحّبوا بالرئيس وقبّلوا رأسه وكتفه اليمنى، ثمّ توافد عليه الناس الذين يتجاوز عددهم مئتي شخص للسلام عليه الواحد تلو الآخر، بارك الرئيس الأعلى للعريس يومه هذا، ولأهله وتمنّى لهم حياة سعيدة، الكلّ أدلى بدلوه، وعبّر جميع الحضور عمّا يملكونه من مشاعر، لن ترى اتّفاقاً على حبّ شخص كهذه الشخصيّة في المدينة كلّها.

كان حضوره مفاجأة، فهذا الرجل دينيّ خالص، يمارس العبادات ليس بكونها فريضةً يؤدّيها بل كأسلوب حياة، فلا يولي ما غيرها اهتماماً سوى ما يقرّب بين الناس ويصلح شأنهم، استمدّت هذه الشخصية محبّتها من مكانتها الدينيّة أوّلاً والقبليّة في المقام الثاني، فأجداده كانوا ينعمون بالجاه والوجاهة أنفسهما، وأجداده معروفون في تاريخ المدينة، وعلى الرغم من كبره في السنّ إلّا أنّ الناس كانوا يلتمسون منه العطف وطيبة القلب، وكان لا يبخل بمدّ يد العون لأحد بقدر استطاعته، غير أنّه يملك صداقة كبيرة مع والد العريس منذ زمن بعيد، وهو ما دفعه لتأجيل كلّ مشاغله ليشارك صديقه هذه الفرحة.

قدّم الشعراء والخطباء المفوّهون كلّ ما لديهم من مشاعر، كانت الكلمات في حضرة هذا الرجل المتواضع أشبه بالأمطار الغزيرة تنهمر في كلّ مكان، وتبعث البهجة بأقصى صورها، إنّها فرصة مؤاتية للظهور وللتعبير، بينما كان الرئيس يعبّر عمّا يسمعه من مشاعر بأن يحرّك رأسه كعلامة للقبول، لا يحبّذ الرئيس القصائد وفي أحيان لا يفهمها ولكنّه يعلم بأنها الوسيلة المثلى واللغة الرسميّة للمشاعر.

لم تتخلّ الدنيا عمّا تُضمره لأهل الهضبة، ففي كلّ ذلك الخير الذي تراه كان يقبع شرّ متخفٍّ، ينتظر اللحظة لكي يظهر، وهذه المرّة على مستوى ابن الرئيس الأعلى الذي لم يكن راضياً عمّا يراه،

كان يشبه أباه كثيراً إلّا أنّ قسمات وجهه لا تُظهر نوايا جيّدة خلفها، فلم يمضِ على استلام أبيه مقاليد منصبه الروحيّ سوى بضعة أشهر قليلة.

وكان هذا الابن حاقداً على الناس يحمل أحلاماً سلطويّة، ومن وجهة نظره أنّ الناس يُحكمون بالشدّة والحيلة، لا بالمحبّة فمكانة الزعيم كما يرى تأتي من خوف الرعيّة منه لا من احترامهم له.

استلم الرئيس الحاليّ مقاليد الزعامة بعد توصية من الزعيم الروحيّ السابق، وتحوّل بين ليلة وضحاها إلى محبوب الناس الأوحد.

ولكن لابنه الأكبر رأي آخر كان لديه دافع يريد من خلاله إذلال الآخرين، لم يهدأ ذلك البركان الخامد، لم يهدأ يوماً دون التفكير في تصفية حسابات كثيرة يجب أن يحسم أمرها، لم تهده الوجاهة ولا إقبال الناس، كان شغفه لإذلال الناس ينطلق بسرعة القطار ليحطّم كلّ شيء أمامه.

كان الرئيس الأعلى يرى ابنه الأكبر عينه التي يرى بها، حبّه لابنه البكر كان يغفر له المساوئ مهما كانت، فقرّر الابن أن يبعد الطبقة الدينيّة من الزهاد والمتعبّدين الذين كانوا مع الرئيس السابق، ويجعل بدلاً عنهم أصدقاءه الجدد، الذين من خلالهم سيحقّق كلّ رغباته وطموحاته.

لم يكن يريد منصب أبيه لأنّه حسب الأعراف الدينيّة لا يستطيع الوصول إليه، فهو لم يهاجر من أجل المعرفة ولم يتشرّب كتب الدين، ولم يتتلمذ على أيدي المعلّمين الأوائل، ولكنّه يريد ما دونها من طموحات وفي مقدّمتها تطويع الناس، وكسب ولائهم وتحقيق مكاسب ماديّة لا تُضاهى، كان هؤلاء الأصحاب من ذوي السوابق الذين لا علاقة لهم بالدين، إذ لم يكن الدين أولويّة لهم فيما مضى، كانت الزمرة المرافقة ثلّة من المتعصّبين الذين استخدموا العصبيّة الدينيّة والقبليّة لخدمة أهدافهم، كانوا شرهين للوجاهة والظهور ولو كلّفهم الأمر أن يتخلّوا عن أغلى ما يملكونه في سبيل أن يكون لاسمهم دويٌّ وصدىً في المدينة، وفي المقابل كان ابن الرئيس قد قدّم لهم فرصة لن تتكرّر على الإطلاق.

كان الابن والزمرة من مقطّبي الحواجب ينظرون لخصومهم في المحفل ليسترجع كلٌّ منهم الذكريات، ويكمل التوعّد داخل قرارة نفسه، وتذكّر أحدهم تهميش الناس له في سوق المدينة في أيّام المراهقة، ونبذهم له كأيّ كائن مضرّ، ووصل الأمر إلى أن يحكم أحد المشايخ للطرف الآخر في حادثة جرت سابقاً، ويظلمه بعد حادث تصادم سيّارات ومشاجرة، فكان القرار القبليّ غير القابل للاستئناف في مصلحة الظالم.

ففي المدينة ميزان العدالة كان معطوباً، ويرجح لمصلحة المعرفة والعلاقات والمصالح، ويغضّ الطرف عمّا يُعتبر الأدنى من

ذلك، فبعد انتهاء الحادثة كان يجرّ عربته وحيداً بشكل مضحك في السوق، في حين أنّ الناس كانوا يصمونه بالألقاب السيّئة؛ كأن يتّهموه بتعاطي الممنوعات، ولكن لا صحّة لكلّ تلك الأشياء التي أطلقها المتنمّرون عليه، ولكنّ تلك الاتّهامات نمت تحمل السوء في داخل روحه، وبرّرت دوافع الانتقام بلا رحمة، ولبقيّة المجموعة المحيطة بابن الرئيس دوافع مشابهة.

نظرات الابن التي لم تتوقّف عن التعرّف على أوجه الناس من حوله يخفض من رأسه المعقوف بالغترة البيضاء بكلّ رفق، ويهمس في أذن أحد مرافقيه الموالين له كلّما استعصى عليه تذكّر أسماء تلك الوجوه.

بينما ظلّ الناس يوجّهون أنظارهم حول قبلتهم الجديدة والحبيبة وهي الرئيس الأعلى، كان المحفل يسير بأفضل حال وأجمل طريقة ممكنة، كان الرئيس أوّلَ من جلس إلى موائد الطعام المتناثرة بشكل منظّم على الأرض، وتناول مقدار ما يحتاجه من الطعام ليعود إلى مقعده في مقدّمة المحفل.

استشعر الناس بطونهم بعد العشاء الدسم، فتلك البطون لا يملؤها إلّا لحم الأغنام والإبل.

همّ الحضور بإعادة الألعاب الشعبيّة مرّة أخرى، وخلال ذلك ظهر شاعر صغير السنّ متحمّسٌ بشكل مفاجئ ليلقي قصيدته بين يديِ الرئيس الأعلى، كان محتوى القصيدة فخريّاً يمتدح في مطلعها

أجداده المشتركين مع الرئيس الأعلى، ويتذكّر في هذه القصيدة ماضي الأجداد المرصّع بالأمجاد، ويغلب على القصيدة طابع الحماسة، وكانت ملائمة لمثل هذا المحفل كما اعتقد الشاعر الصغير وتلك المعاني يعرفها جميع الناس حتّى قبل أن تُلقى القصيدة لأنّ هذه القصائد تدور حول موضوعات دارجة تحكمها الأعراف.

همّ الشاعر الصغير بإخراج الورقة التي دوّن القصيدة على ظهرها، وخالط طريقة مدّه إلى جيبه نوع من الارتباك، بحكم أنّه لم يسبق له أن ألقى قصيدة أمام الرئيس الأعلى وهذا الجمع الغفير، وفي بغتة وطرفة عين قام أتباع ابن الرئيس المتعصّبون معلنين بصوت عالٍ، وحماسة مفرطة أنّ الرئيس الأعلى يتعرّض لمحاولة اغتيال من هذا الشاب الشاعر، ومن قبل الذين يقفون معه، وقام ثلاثة من الأتباع بمسك يد الشاعر وهي في جيبه قبل أن يخرجها للملأ.

لحظات وتحوّل المحفل إلى ساحة استعداد للحرب، لم يكن هنالك مؤشّرات تدلّ على هذه المحاولة الإرهابيّة، إلّا أنّ كلّ من في المحفل أحاط بالرئيس بكلّ عشوائيّة، واعتلت الأصوات المنادية بالحماية من المعتدين الكفرة المارقين عن الدين الذين يستهدفون الرئيس الأعلى، رفع البعض الأسلحة البيضاء، والآخرون ظلّوا يراقبون هذا العدوّ الخفيّ الذي لم يظهر، وظهر أقارب الشاعر الصغير ليدافعوا عن ابنهم الذي فقد توازنه.

تفاجأ الرئيس ممّا حدث، ولكنّه ظلّ صامتاً يحاول فهم الأحداث، عندها أبعد الأتباع المتعصّبون الرئيس الأعلى بشكل سريع، وكأن هنالك من يركض خلفهم، وأركبوه سيّارته وانطلقوا به بعيداً.

فقد الشاعر الصغير وعيه بعد حادثة الفزع والأسلحة البيضاء التي شُهرت في وجهه، فلم يتوقّع أنّ بيتين من قصيدة مدح سيجعلان حياته على كفّ عفريت.

انتهى المحفل، والكلّ ينظر للآخر بنظرة ريبة وشكّ، ظلّ من في الحفل لدقائق ينظرون بعضهم لبعض محاولين فهم ما يحدث، وأخذ كلّ منهم يسترجع ضغائنه السابقة ويلتفت يمنةً ويسرة متوقّعين الوقعة، انفضّ المحفل من قبل الكهول، وطلبوا أن يذهب كلّ فرد إلى بيته.

وعدنا إلى منزلنا، وكان أبي ضمن من وقفوا بجانب الرئيس الأعلى، فهو من ضمن من قاموا بحماية الرئيس الأعلى ولكنّه لم يرَ أيّ تهديد، كما أنّه ممّن يكنّون الحبّ الكبير للرئيس للدرجة التي تجعله يضع حياته رهن أيّ تهديد يتعّرض له، كنت كفتاة صغيرة أجلس مكتوفة اليدين مقطّبة الحاجبين من فرط الغضب ممّا فعلت بي أمي في المحفل؛ فطوال هذا اليوم التعيس كانت أمّي منشغلة بالثرثرة مع النسوة، وكنَّ يصطحبنها لساحة الاحتفال الشعبيّة

النسائيّة لتشاركهن في أغنياتهن وأحاديثهن، فهن لا يعلمن بأنّ حبّهن لأمّي تعاسة لي كنت أشبهَ بقطعة الزينة التي وُضعت في المكان الخاطئ.

مقاس الحلم الجديد

الفتى يروي..

مرتحلٌ، يجرّ أذيال الخيبة خلف ظهره الصغير، كنت في الهضبة الجنوبيّة أُعاقب من أجل أخطائي، ولكنّ الأمر يختلف في هذه المدينة فأنت تُعاقب من أجل أخطاء لم تقم بها، ولا تعرف ماهيّتها، ولا متى كان هذا الخطأ الذي تشكّل عبر التاريخ؟

والأسوأ من تجرّعك مرارة ذنب لم تقترفه هو عدم رؤيتك التعاطف في أعين أحد، وكأنّ شيئاً لم يكن، وما لم تصعد بكامل إرادتك إلى قمّة الجبل المطلّ على هذه المدينة معلناً توبتك من دنس، وضلال ارتكبته وأنت لم تتجاوز الثانية عشرة من عمرك، وفي مقدّمتها أن تترك هذا المذهب الذي تنتمي إليه، وتتبرّأ من الأشخاص الذين عرفتهم طوال حياتك القصيرة، من أجل إرضاء أناس لا تعرفهم، فسيلفظك المجتمع خارجه كما لو كنت مسؤولاً مخيراً في اختيار مذهبك، وكما لو كان المذهب جريمةً يُحاسب عليها القانون.

ما يحدث لي ليس إلّا ضرباً من الجنون، كان يومي ينقسم إلى

مرحلتين، المرحلة الأولى هي لمدرّسين يجعلونني أكره من هم في بيتي بحجّة أنّهم خارجون عن الملّة، والمرحلة الثانية من والديّ اللذين كانا يريان أنّ الطرف الآخر ليس إلّا من الغُلاة سيصلون نار جهنّم، كلا الطرفين يتكلمان باسم الدين.

كلا الطرفين يستخدمان هذا السلاح الذي قتل الملايين عبر التاريخ على جسد نحيل مثلي، كنت أشبهَ بساحة للقتال، تُقام داخل وخارج تجاويف أضلع صدري النحيلة معاركهم الطاحنة.

لم يسبق في كتب التاريخ أن انتصر الطرفان وخسرت أرض المعركة، كما أنّ التاريخ نفسه لم يسبق أن كتب عن جسد طفل تحوّل لساحة معركة بين الكبار.

كلّ ما كنت أريده هو أن أكون طفلاً، أن أكبر بشكل سريع ليتسنّى لي الابتعاد إلى أبعد ما يمكنني أن أصل إليه ثمّ لا أعود أبداً، لقد حلمت بهذه المدينة البعيدة وبحضارتها وبتطوّرها وبأحلامي التي ستعانق سماءها الزرقاء، وكبرت وأنا أريد التخلّص من كلّ ما حلمت به.

عرض رجل أعمال على صاحب العمارة التي نسكنها عرضاً مغرياً لشرائها وتحويلها لأرض استثماريّة؛ بحكم أن موقعها في شمال المدينة والذي يُعتبر من أغلى الأماكن، وأغلبيّة من يقطن الشمال هم من الطبقة المخمليّة.

قرّر صاحب العمارة أن يُشعرنا برغبته بأن نخرج، لكن لم تكن الطريقة مهذّبة، وضع لنا ورقة على الباب، ومنحنا فيها خمسة أيّام لإخلاء الشقّة.

كان لدى أبي شكوك بأنّ المتشدّدين الذين تسبّبوا بالمشكلات الأخيرة في الحيّ والمدرسة هم من أقنعوا صاحب العمارة بأن يطردنا.

تحقق أبي فيما بعد أنّ الأمر بعيد كلّ البعد عن ظنّه، عارض مبدئيّاً بحكم أنّ هنالك عقداً مبرماً متّفقاً عليه ينتهي بنهاية السنة الهجريّة، وكان أبي يعرف الإجراءات النظاميّة جيّداً، وقد جاءت معضلة الانتقال في وقت مفاجئ للغاية.

لم تكن الأمور الماليّة قد تحسّنت كثيراً منذ انتقلنا من الهضبة الجنوبيّة، ومن هنا كان اعتراض أبي على الرحيل وتمسّكه بالعقد، رجع فيما بعد صاحب العمارة برسالة تهديد أخرى، ولكنّ أمّي تدخّلت في الوقت المناسب بطريقتها اللطيفة كالعادة، فنزعت الذهب الذي ظلّت سنوات طويلة محتفظةً به من يدها لتمنحه أبي للبحث عن بيت جديد، عن مكان جديد ليؤوينا ونبتعد عن هذا المكان السيّئ.

إنّ أمي في تلك الحالة تواجه المجهول بأغلى ما تملك، ذلك المعدن النفيس عند نساء الهضبة الجنوبيّة أمر يختزل قيمتهن، ويعبّر عن رفاهيّتهن، وحياتهن السعيدة حتّى وإن لم تكن كذلك، تخلّت أمّي

عن أهمّ ما تريده امرأة لنفسها وعائلتها وهو مظهرها أمام الناس، ولكنّه رهانها الوحيد حتّى يبقى في الأفق أشياء جميلة تنتظرها، ليس هنالك ما هو أنبل من أن تتخلّى عن أشياء ظللتَ تعيش من أجلها.

عارض أبي بشدّة أن تتنازل أمّي عن أغلى ما تملك في سبيل قضيّة هي من مسؤوليّة الرجل، وبعد مدّة من الصراع ضدّ عناد الوالد الفولاذيّ الذي لن تغيّر من ملامحه أقوى المطارق، استطاعت أمّي أن تُطيح بهذا العناد أرضاً.

ذكّرته أمّي بأنّنا لسنا في الهضبة الجنوبيّة، فالرجال هناك يتحمّلون كلّ شيء أمّا هنا فإنّ الأمر مختلف، ولا سبيل للاستمرار سوى بالتعاون والتكامل بين الرجل وزوجته.

كانت مسيرتنا الأوليّة في هذه المدينة أشبهَ بمغامرة نسبة نجاحها ضئيلة، كنّا نحتاج أن تبتسم السماء لنا وتكسبنا أمل البقاء لأكبر مدّة ممكنة، كانت أمّي تدعو في صلواتها أن نُرزق بأيّام أجمل ممّا تعرّضنا له، فبقدر ما كنّا وحيدين ومحاصرين في أعلى العمارة التي نسكنها، إلّا أنّ أجمل ما فينا كعائلة هو محاولتنا أن نعزّز شعورنا المشترك.

طريقة انتقالنا ورحيلنا تقليديّة قديمة بقدم الإنسان الأوّل، نشر البشر البدائيّون في وسائلهم الإعلاميّة القديمة عن فقدان عائلة، يبدو أنّها عائلتنا التي ارتحلت إلى هذا الزمان الأغبر.

كان أبي بدائيّاً في تعاطيه مع المسؤوليّات، ومنها هذه العمليّة

الشاقّة التي تُسمّى الانتقال من مكان إلى آخر، يستغلّ كلّ حيّز من الهواء داخل السيّارة ليملأها بقطعة من أثاث شقّتنا.

ومن المواهب التي كان يمتلكها في صغره، والتي تعلّمها من جدّي، هي كيفيّة شدّ الرحال، لقد تعرّفت على مواهب والدي التي لم أكن أعرفها جيّداً في هذه الغربة، فأبي كان كلّ سنة في صغره يشدّ الرحال مع جدّي لأداء مناسك العمرة والحجّ، فلم يكن موضوع الترحال لدى أبي بالشيء الصعب كثيراً، بل كان مدعاة للتسلية، كان ينشد الأغاني الفولكلوريّة عكس ما أنا وأمّي عليه، فالأغراض والأثاث لا تنتهي، وصوت أبي السيّئ يزيد من صعوبة ما يحدث.

كنت أحاول أن أشبه أبي برفع المقدار نفسه من الأغراض التي يحملها لأثبت له أنّي رجل، وفي الوقت نفسه لأستشعر عضلات ساعدي التي يُخيّل إلي أنّها بارزة بعد كلّ مسار للتنزيل، كان الأمر قد بدا أنّه مسلٍّ مع مرور الوقت ولكنّه متعب.

أمّا أمّي فلقد ظلّت واقفة لوقت تنظر لباقي البيت الفارغ الذي كانت تخطّط لأن تملأه بالأثاث قبل أن يأتي قرار الرحيل المفاجئ، تتخيّل مجلسها النسائيّ العامر، الذي كانت تريد أن تستضيف فيه الصديقات اللّواتي لم تعرفهنّ بعد، ضحكاتهنّ التي كانت ستملأ المجلس، والتي لم تأتِ هي الأخرى بعد.

بينما كان أبي واقفاً بجانب أمّي في تلك اللحظة نفسها يحلم بأن يرحّب بضيوفه القادمين من الهضبة الجنوبيّة ويُكرمهم في مجلسه

الجديد، ويستشعر الكثير من البهجة وهم يمدحونه بعد رحيلهم في ظهر الغيب، ويتخيّلهم يقولون: إنّ هذا ليس بغريب؛ فهو ابن الحكيم إمام مسجد الهضبة الجنوبيّة، وليس هذا مستبعداً عن تفكير أبي فسمعة الرجال هي تخليدٌ لأسماء الآباء والأجداد من قبلهم.

أمّا أنا فلم أكن أريد إلّا الرحيل عن هذا المكان، وبدلاً من أحلم بمكان سعيد، كنت أتمنّى أن أزيل كلّ هذه الأماكن والأوقات من ذاكرتي، وألّا أعود لكلّ ذلك الفزع الذي داهم طفلاً مثلي.

لم يُكتب للمجالس التي حلَم بها والداي أن تكتمل بسبب أنّنا لم نجمع المال الكافي بعد، كان هذا من حظّ بيتنا الجديد، الذي وجده أبي بعد عناء وبحث استمرّ مدّة أسبوعين.

كانت شقّة لا تختلف عن شقّتنا السابقة غير أنّها تقع في الطابق الأرضيّ ولها باب مستقلّ، كان الجيران في الشقّة السابقة يمرّون بجانب سيارتنا الممتلئة بالأغراض والأثاث دون أن يعرضوا مساعدتهم، كانوا يقفون ليشاهدوا رحيلنا، مجتمعين وكأنّهم أمام جثث لأجساد بشريّة ملقاة على الأرض، كان وقوفهم بذلك الشكل يستفزّنا جميعاً، يتهامسون بعضهم لبعض، يريدون أن يشعرونا بأنّنا غير مرغوبين في هذا المكان، وهذه هي الحقيقة التي لم نجهلها يوماً.

كنت أنظر للرجل نفسه الذي أتى أبي لينصحه بالصلاة، ومن ثمّ تسبّب في الأحداث التي حدثت معي في المدرسة، كان يقف مع

اثنين من أشباهه، كنت أتمنّى لو أنّ جسدي الصغير في تلك اللحظة يتساوى مع أجسادهم ليتسنّى لي أن أجعله عبرة لكلّ هؤلاء الحاضرين.

ربّت أبي على كتفي وهو ينظر بكلّ عداء للرجل نفسه، كان أبي ينتظر منه أيّ كلمة لينقضّ عليه، ولكنّه أعطانا لمحة ذكاء ولم يَبدُر منه أيّ تصرّف أو كلمة تشير إلى إحساسه بالانتصار الذي تحقّق بإخراجنا من الحيّ، أمرنا أبي وهو ينظر للرجل نفسه بالركوب، فجلست مع أمّي في المقعد الأماميّ بسبب تراكم الأثاث في الخلف وفوق السيارة، ثم رحلنا عن تلك الجهة للأبد.

حرص أبي على أن يجلس مع صاحب البيت قبل أن يدفع الرسوم الأوليّة لاستئجار البيت، لكي يختبر خلفيّته الدينيّة خوفاً من أيّ تأثير عليه.

كان صاحب البيت رجلاً في الخمسين من عمره، يميل إلى طبائع البادية، في أسفل وجهه لحية كثيفة محدّدة بشكل دائريّ وشنب عريض، كان طوال اليوم يلعب بالمسبحة التي يستخدمونها في الصلاة، كان يحّركها بشكل دائريّ عموديّ، وكأنّه يستعدّ لرمي كرات اللهب في معركة ما، ظهر أنّ للرجل نسباً معروفاً بين العرب والقبائل، عرف قبيلتنا وكان أبي قد امتعض من هذه المعرفة، لأنّه بالتأكيد يعرف خلفيّة قبيلتنا المذهبيّة، ولكنّ الرجل بدا وكأنّه أبعد

ما يكون عن كلّ تلك الأمور، اطمأنّ أبي وشعر بأنّ هذه الفوّهة المظلمة قد أُغلقت.

كان جيراننا لا يقلّون عن خلفيّة صاحب المسكن الثقافيّة، فهم من أهل البادية، لا يعرفون شيئاً سوى ما يسمعونه في المساجد ومن رجال الدين، ولكنّهم لا يهتمّون.

كانت حياتهم تقتضي أن يتعاملوا بهذا الشكل، فعلاقاتهم الاجتماعيّة ذات روابط مقدّسة، وأحاديثهم تدور حول الأمطار والأفراح وأخبار الشعراء ومحاوراتهم، وكانوا يقدّمون أنفسهم للغرباء ككرماء وهم أهل لذلك، ولا يريدون أن يلاحقهم لوم الناس، كانوا أقرب لأوضاع مسقط رأسنا في الهضبة الجنوبيّة، فهذه الطبائع لا تختلف عنّا كثيراً غير أنّنا في أحيان كثيرة أكثر تطرّفاً للعادات من بادية هذه المدينة.

أنزلنا أثاثنا الذي لم يتّسق مع شكل البيت الجديد، ولا مساحاته عندها قرّر أبي أن يجلب نجّاراً ليعيد مقاسات أثاثنا ليتناسب مع قياس بيتنا الجديد، كمحاولتي في هذه الحياة أن أضع لأحلامي مقاسات تلائمني بدلاً عن تلك الأحلام الفارغة التي نسفها الواقع بفرضيّاتها ونظريّاتها وبجميع علومها.

اللاعقون من تراب العاصفة

الفتاة تروي..

كان أقصى الأحلام لفتيات جيلي هو أن نشغل وظيفة معلّمة، فهذه هي الوظيفة الوحيدة التي يحقّ للمرأة أن تشغلها.

كلّ ما كنت أريده أن أكون مدرّسة تاريخ أعلّم الفتيات أنّ حدث محفل الزواج الذي كان قبل سنوات لم يكن حدثاً عابراً، وليس مجرّد محفل يفرح فيه الناس ويحتفون بالعريسين المتّجهين للقفص الذهبيّ، بل كان نقطة تحوّل في تاريخ المدينة كلّها.

في المستقبل سأدخل على الطالبات، وأكتب لهن على السبورة أنّ تاريخ هذه المدينة تحوّل إلى عهدين، عهد ما قبل محفل الأعراس الذي جاءه الرئيس الأعلى وابنه وعهد ما بعده.

سأقول للطالبات بأنّ الحياة قبل ذلك اليوم تحديداً لم تكن سعيدة للغاية، ولكنّها كانت قابلة للعيش، ومنفتحة للاحتمالات، متى ما تذكرت هذه المدينة السعادةَ فإنّها تقتحمها بكلّ يسر وسهولة دون أن يقف في وجهها أحد، وكذلك الأمر عندما تدير لها ظهرها، لا يبدو أنّ الحال كذلك هو اليوم ولافي القادم من الأوقات، كان من الواضح أنّنا ذاهبون بلا شعور منّا إلى الهاوية.

بعد أيّام من حادثة محاولة الاغتيال اشتعلت الإشاعات بين الناس حول حادثة الشاعر الصغير ومن معه، وأصبحت هذه القصّة هي الأكثر تداولاً بين الناس في المدينة، فالموجودون لم يروا شيئاً بأمّ أعينهم، ولكن ردّة فعل المرافقين للرئيس لم تترك مجالاً للشكّ في مصداقيّة ما قاموا به، فقد نجحوا في إقناع الناس بأنّهم لا يمكن أن يخطئوا أو أن يختلقوا اتّهاماً خطيراً كهذا.

كما أنّهم الطبقة الدينيّة الجديدة التي وثق بها الرئيس، وبطريقة أو بأخرى فهم في أعين الناس يمثّلون الدين نفسه.

نشر المتعصّبون هذا السيناريو ليكون هو الرواية الموثوقة، وهي أنّ الشاعر الصغير وهو يلقي قصيدته قد مدّ يده خلسة إلى جيبه ليخرج سلاحاً أبيض لينقضّ على الرئيس الأعلى، وبرّر المتعصّبون بأن السبب الذي دفع الشاعر لذلك هو قناعته بأنّ الرئيس الجديد لا يستحقّ المرتبة التي وصل لها.

بينما قال متعصّب آخر بأنّ لديه فراسة تعرف تأويل الشعر، وبأنّ معاني الشاعر الصغير في قصيدته تتضمّن إيحاءات تهديديّة قبل أن يقولها أو يتفوّه بها، وأضاف أحدهم بأنّ الرئيس الأعلى يملك قدرات خارقة لقراءة ما يُضمره هذا الشاعر من نوايا عدائيّة، وبرغم انتشار الكثير من الإشاعات حول الحادثة إلا أنّ ما نُشر

من قبل المتعصّبين القريبين من ابن الرئيس هو الأكثر وثوقاً لدى الناس.

لم يخرج الرئيس للناس أو يبيّن وجهة نظره منذ أسبوع تقريباً، بينما كان الناس بين مؤيّد ومعارض لهذه التأويلات، ولم يتبنَّ ابن الرئيس هذه الرواية، ولكنّه في الوقت نفسه لم يرفضها لكيلا تُحسب عليه في قادم الأيّام، لقد كان الابن أذكى من أن يترك خلفه أثراً واحداً لهذه المؤامرة.

رفض ابن الرئيس اقتراح الزعماء القادمين لإصلاح ذات البين بجلب الشاعر الصغير، والتحقيق حول فعلته ووضع المصحف في يده ليحلف أنّه لم يُقدِم ولم يفكّر بمثل هذا الأمر.

كان الرفض بحجّة أنّه لن يعترف، فهذا الشاعر وعشيرته معروفون بالكذب ومعاداتهم الرئيس منذ وقت طويل للغاية، كما أنّه لا يوجد وقت للتعامل مع هؤلاء الحاقدين بهذا الرقيّ الذي لا يستحقونه، وأنّ كلمة الله يجب ألّا تُعرض أمام أناس لا يقدرونها، وأن الأعداء في الخارج المدينة ينتظرون أن يسقط الرئيس ليواصلوا شماتتهم وسخريّتهم من رجال الدين في مدينتنا، فهذه نقاط حمراء يجب ألّا نتهاون معها، ويجب أن يُلقّن الشاعر الصغير ومن معه درساً للموعظة والعبرة.

كان المشايخ عازمين على حلّ المشكلة لمعرفتهم بخطورتها على رعيّتهم، ولكنّ ابن الرئيس أغلق كلّ الأبواب في أوجههم، فتارة كان يقدح في أخلاق عشيرة الشاعر ويختلق عداوة سابقة بينه وبين أبيه، وتارة يؤجّل الموضوع بكلّ ما استطاع.

في هذه الفترة التي كان المشايخ فيها يحاولون حلّ الموضوع بكلّ ما استطاعوا لكنّ الإشاعة قد أخذت موقعها في نفوس الناس وصدقوا محاولة الإغتيال، وكان أيّ شخص يكذّب هذه العملية أو يشكّك في مصداقيّة حدوثها فإنّه متعاطف مع الجناة، وهو راضٍ عن فعلتهم ويجب أن ينال جزاءه معهم.

أمّا الرئيس فلقد أخذت أطياف المروءة والدين تجرّه إلى التسامح والصفح عن الشاعر الصغير، وكان هناك جزء كبير من الناس يخبره بأنّ الأمور لا تستحقّ أن تُمنح كلّ ذلك الضجيج، أخذ يتذكّر المحن التي تعرّض لها الرؤساء السابقون، تذكّر كيف أنّهم سُجنوا وقُتلوا وشُرّدوا وأبعدوا عن أحبابهم وبلدانهم طوال أعمارهم، ومع ذلك لم يدفعهم ما حدث معهم إلى التنازل عن أخلاقيّاتهم، وبالمقارنة مع ما حصل له فإنّه يجب في النهاية أن يصفح ويدفع السيّئة بالحسنة.

أمر بأن يُؤتى بالشاعر الصغير إليه ليغفر له ما فعله، ولكنّ هذا ما لم يحدث، فالابن ظلّ يؤجّل موضوع الصفح من فترة لأخرى، في محاولة منه أن ينسى أبوه هذا الصفح ليتسنّى له إكمال ما خطّط له.

وفيما بعد قرّر الرئيس الأعلى إغلاق هذا الباب نهائيّاً بغية ألّا يُدخل أتباعه في متاعب جمّة، كما أنّ ضميره ما زال يخبره بأنّ دوافع الشاعر الصغير يجب ألّا تأخذ أكبر من حجمها.

نودي بصلاة الجمعة وكان الزعيم في طريقه إلى الإمامة بالمصلّين وعندما دخل المسجد سقط مغشيّاً عليه، نقل الرئيس إلى المستشفى وبعد وقت طويل من الكشوفات الطبيّة اتّضح أنّ الرئيس يعاني من التهاب حادّ في الأذن الوسطى كان السبب في فقدان توازنه، وبدلاً من أن يخبره ابنه بنتائج الفحوصات أخرجه من المستشفى دون أن يعرف الرئيس ما أصابه.

مكث الرئيس فترة في البيت، وقرّر العودة لإمامة الناس في المسجد ولكنّه وقع مغشيّاً عليه في المرّة الثانية، عندها رفض الابن أن يُنقل أبوه للمستشفى، وقَرَّر أن يُؤخذ لبيته على سفح الجبل المطلّ على المسجد، وبعد أيّام من العناية في البيت أحاط الابن وعصابته بأبيه الرئيس وهو طريح الفراش ليخبروه بالنبأ العظيم.

أخبره أحد المتعصّبين بأنّه خبير في الرقيا الشرعيّة، وبأنّه تمّ وضع عمل سحريّ له في المسجد الكبير، عندها قام الابن بغضب وأوضح لأبيه أنّ الاستهداف واضح، وأنّه يجب أن يوقف هؤلاء عند حدّهم، في الأمس كانوا يريدون قتله واليوم يريدون سحره.

- اسمعني يا مولاي أنا وأنت نعرف أصحاب هذه الأعمال

القذرة، وما فعلوه بنا قبل أن تصبح الرئيس، ونعلم الذي يريدون أن يصلوا إليه، والله لئن سكتنا فإنّها ستصبح فتنة للعالمين، فيجب عدم السكوت على ما يقومون به.

عندها عزل الابن أباه الرئيس الأعلى عن الناس لأشهر طويلة معلّلاً عزلته بأنّ أباه يعاني من متاعب جسديّة تستوجب راحته وبعده عن الناس، استطاع الابن أن يوضّح لأبيه أنّ العزل لسلامته من الأخطار المحدقة حوله ريثما يكشف كلّ أسماء المتعاونين مع الشاعر الصغير.

انتقل الرئيس الأعلى وابنه من بيتهم على سفح الجبل إلى بيتهم الجديد الذي تمّ منحهم إيّاه على أطراف المدينة، لتكتمل خطّة الابن في التأثير على أبيه بإقناعه بمحاولة القتل التي تعرّض لها وبعدم التسامح معها.

قضى الابن على كلّ محاولات الرئيس من أجل التسامح مع هذه الأفعال ومن يقف خلفها، لقد خاف الرئيس أن يظلم أحداً، ولكنّ ابنه قال له: إنّ الشدّة والصرامة هما وجه من أوجه المساواة والعدالة، وإن كان هنالك ظلم فمن أجل مصلحة الجميع، منع الناس من الدخول على الرئيس بحجّة أنّه يعاني من وعكة صحيّة، وسيطر على كلّ من يريد الدخول على الرئيس وفي مقدّمتهم أصدقاؤه الذين تمّ إبعادهم فيما بعد.

ظلّ الابن يذكّر الرئيس بما فعلوه بهم من قبل أن يعتلي هذا المنصب، وأنّ من مارسوا عليه الإقصاء هم أنفسهم الذين تشتعل صدورهم بالحقد بسبب منصبه الجديد، وليس من العدل الرأفة مع هؤلاء مهما تطلّب الأمر، حصل الابن على المحبّة الخالصة في قلب أبيه، وهذا ما جعله يمتلك تأثيراً كبيراً عليه.

بعد أشهر ظهر الرئيس الأعلى معلناً حربه الشخصيّة على من حاولوا اغتياله ومن حاولوا سحره، غير أنّه أخفى التهمة الأخيرة ولكنّه لم يخفِ الاقتصاص من أهلها.

كان الابن يراقب آراء الناس في تلك الفترة إلى أن ظهر مؤخّراً بقائمة المشكوك في أنهم كانوا خلف الجريمة النكراء، ولم يكتفِ بذلك بل ضمّن القائمة أسماء المتعاطفين والمشكّكين بصحّتها، وبعد أشهر من الأخذ والردّ في هذا الموضوع الذي شغل المجتمع لفترة طويلة، قرّر الناس انتظار ردّة فعل الرئيس، لقد انتظر الناس بفارغ الصبر ما سيسفر عنه الخبر العاجل.

وفي صلاة الجمعة جهّز الابن قائمة طويلة بالأسماء والعوائل وبعض العشائر التي يظنّ أنّها خلف المؤامرة، أو كانت راضية كما يعتقد، تقدّم الابن إلى مكبّر الصوت في المسجد الذي لم يعرف سوى الآيات القرآنيّة التي تُرتّل في الصلاة، ضرب المكبّر مرّتين وتحدّث عن الواقعة واليوم الذي حدثت فيه الحادثة الشهيرة، ومن ثمّ أعلن عن الأسماء والعقوبة.

شكّلت القائمة صدمة كبيرة للناس، فلقد ضمّت أقاربَ للرئيس، وأسماء عشائر معروفة بمواقفها مع الرؤساء السابقين، وأئمّة مساجد، وبعض الأسماء التي لم يعرف عنها الناس سوى السيرة الحسنة في المدينة، ولأنّ الناس لم يكن عليهم سوى التنفيذ لقناعتهم بأنّ هذه العقوبة صدرت ممّن يُعرفون بأنّهم الوجه الحقيقيّ للدين، صدر الأمر باسم الرئيس بضرورة قطع الموالين علاقاتهم بمن في القائمة دون استثناء، وكان على الجميع التقيّد بكلّ ما جاء في القائمة.

في القدم كانت هذه العقوبة القاسية ذات صبغة دينيّة تختصّ بالأفراد، ففي العرف القديم وكما هو متعارف يرصد الرئيس هذه العقوبة للردع ومن ثمّ يرفع العقوبة بعد أن يعلن المرء عن توبته ممّا أقدم عليه، هذا بطبيعة الحال في القدم، أمّا في الوقت الحالي فإنّه لا توبة لهؤلاء لمحاولتهم قتل الرئيس أو الرضا عن ذلك.

لم يكتب تاريخ المدينة عقوبة مشابهة تعرّض لها هذا العدد الكبير من العائلات أو العشائر كما فعل ابن الرئيس في هذه القائمة.

في هضبتنا الجنوبيّة عزل الفرد من الجماعة هو أقسى عقوبة لا يتمنّاها الشخص، عقوبة ذات آثار نفسيّة قاهرة، إنّ شعورك ألّا تكون مرغوباً بين الناس وأن تصبح منبوذاً بين أهلك وعشيرتك أقسى من كونك في عداد الموتى، أو سجيناً بين أربعة جدران، كأن

تُترك وحيداً لترميك الحياة دون رحمة ولا شفقة، لذلك شعر الناس بالخوف من هذا القرار وتبعاته.

كان من برتوكولات العقوبة أنّ المتعاطف أو الذي يتّصل بهذه الأسماء يُعامل مثل المُعاقب وذلك بإبعاده، ونبذه من الحياة الاجتماعيّة، ومع مرور الوقت تحوّل المجتمع إلى أغلبيّة منفّذة للعقوبة ضدّ أقليّة يزداد عددها مع مرور الأيّام، ولكنّ زيادتها على استحياء.

تطوّر الوضع إلى أن أصبح الناس يذهبون لأخذ الفتاوى من الرئيس بشأن البقاء في علاقاتهم الزوجيّة مع الزوجة أو الزوج إن كان أحدهما من الفئة المقطوعة المنبوذة، وكان الابن يوجّه الناس إلى أئمّة التعصّب الجُدد الذين تمّ تعيينهم على المساجد مؤخّراً بقرار من الابن فما كان منهم إلّا أن يدعوا إلى المبادرة في تنفيذ العقوبة، ورفض المصالحة مهما كلّف الأمر، واعتبروا رفض الامتثال لذلك أو التساهل فيه بحدّ ذاته تحدّياً لإرادة الرئيس الأعلى، وتأييداً لمن يعاديه.

كانت بساطة الناس وحبّهم الرئيس يجعلانهم يفعلون كلّ ما يُؤمرون به دون تردّد، فكثرت حالات الطلاق بين الأزواج، وكان كلّ ذلك يحدث بدم بارد، ودون أيّ تأنيب للضمير بسبب أنّ ذلك كان مبرّراً من أهل الدين أنفسهم، فهم أعلم بمصالح الناس من

أنفسهم، وغايتهم هي إصلاح الناس، بينما في الحقيقة هم يدمّرون الشارع.

استشرى الأمر في المجتمع لكنّ أبي المعروف برزانته ووقاره اختار أن يكون على الحياد برغم حبه للرئيس الأعلى، فأبي عميد عشيرة كبيرة ولا يريد زجّ أقاربه في معركة لا ناقة لهم فيها ولا جمل.

لقد كانت نساء المدينة أكثر حكمة في هذه الأزمة من رجالها، وبرغم ظهور نساء متعصّبات، إلّا أنّ ذلك لم يبطّئ من تعاونهنّ ووقوف بعضهن مع بعض في ظلّ هذه الجائحة الاجتماعيّة، ولكنّ الأمر لم يدم طويلاً، فالمرأة لا تستطيع أن تصمد طويلاً أمام مجتمع ذكوريّ متعصّب لا يأبه إلا بغاياته فقط.

أمّا أمّي فقد تجلّت صورة المرأة العجوز أمامها أينما ذهبت لقد خُيّل لها من فرط الحزن أنّ المرأة تقف أمامها من جديد لتؤكّد كلّ ما قالته لها من فأل، لقد تكلّمت تلك الأحجار والنوى، وحكت لنا كلّ ما سيحدث، لقد أخبرتنا بأنّ العاصفة لن تستثني أحداً.

بدا العالم يومها غريباً على فتاة مثلي لا تعرف ماهيّة هذه الأحداث، فقد تغيّرت قسمات وجه أبي وظهر أكثر قلقاً واتّسم بالحدّة، ولم أعد تلك الفتاة التي تخطف قلبه مع كلّ حركة لكنّني بقيتُ أحبّه كثيراً.

كنت قد تجاوزت الخامسة عشرة بقليل حينما تحوّل قادة الأمس الذين يجيّشون الناس إلى تكدّس شبه يوميّ أمام باب بيتنا لطلب

يدي، وبات منزلنا أشبه بمقرّ حكوميّ اقتحمه عدد غفير من المتقدّمين إلى الوظائف.

لطالما تخلّلني شعور رائع برفض المتقدّمين لربّما كانت النقيصة التي أشعر بها طوال طفولتي قد استجابت لي، لتجعلني على عرش الأنظار فلا شعور يماثل هذا الشعور إلّا شعور الملوك أنفسهم وهم يتمايلون في جلوسهم على العرش، وكلّ ما عليهم لرفض أمر ما هو أن ينظروا فقط إلى وجوه الناس.

يا لها من لحظاتي الأكثر رفاهيّة على الإطلاق، غير أنّ مواصلة تكرار هذا الرفض جعل الأمر يأخذ طريقاً أكثر جديّة.

مع مرور الوقت كنت قد اكتشفت أنّ الأمر وصل إلى حدّ تقديم الرُّشا، وأنّني تحوّلت لبضاعة تدرّ الأموال الطائلة لبعض الشخصيّات حولي ممّن يحاولنَ إقناعي بقبول أحد المتقدّمين.

كانت بعض الأمّهات يغرينني بالمال في حال تمّ إقناعي بأبنائهنّ، غير أنّ الإلحاح كسلوك كان ينفّرني قبل أن أعرف بموضوع شراء الذمم.

كانت النسوة يقدمنَ لي صوراً بمقاس أربعة في ستّة عن المتقدّم الجديد ويتكلّمن عن مزاياه، وكأنّي زبون مُستهدَف من شركات التسويق في سوبر ماركت، إلّا أنّني لم أكن الشاري بل البضاعة نفسها، وكأنّني فتاة هوىً والنساء يقمن بأكثر الوظائف خسّة وهي الدعاية والترويج.

كنت أسأل: ماذا سنسمّي مثل هذا الأمر لو أنّنا في مكان آخر في هذا العالم؟ وما أثار استغرابي هو استثارتي غرائز الرجال دون رؤيتهم لي.

كانت الأمّهات والأخوات يقدّمنَ هذه الخدمة المتفحّصة للرجل، يتفحّصن الأجساد ويقيّمن الأخلاق حسب ما يروق لهن وليس كما يريد الرجل، لا أرى احتمالات نجاح للعلاقات التي تأخذ هذا المستوى من التعارف دون أن يعرف أحد الطرفين الآخر، كان رهاناً محيّراً ولا يدعو إلى التفاؤل، ولكنّ المجتمع لا يعرف إلّا هذه الطريقة الغريبة وما دونها من تعارف كان يهدّد صاحبه أو صاحبته بجرائم الشرف حتّى وإن لم يكن هناك ما يدعوا لذلك، لكنّ هذه التساؤلات لم تغيّر شيئاً ممّا يحدث معي في تلك الفترة.

مع مرور الوقت اختلط حابلي بنابلي، ولم أعد أفهم هذا الرفض المتواصل، أهو حياء أم خوف أم أنّه القرار الصحيح؟ كنت أرى العروض تتحسّن والمميّزات تتفوّق عن الشخص الآخر لذلك كنت أرفض باستمرار لعدّة شهور.

ومن سوء الأمر أنّي وقعت فريسة لمصيدة الرجل المتخيّل، ذلك الرجل الذي يتشكّل في الذهن، ولكن لا أثر لوجوده في الحياة الواقعيّة، إنّه المفهوم الورديّ لفارس الأحلام.

كان من أبرز صفاته علاوة على وسامته أن يتحوّل كلّ ما تقع يداه عليه إلى ذهب لأضمن عدم وصولي إلى الأرض عند سقوطي.

وفي يوم وبعد أن فرغ أبي من صلاة الجمعة لقي خارج المسجد أحد الإخوة المصلّين ليسردوا أمامه النشرة اليوميّة للأخبار، وكان والدي لا يكترث كثيراً لتلك الأحاديث، وفي غمار الحديث أتاه أحد المؤمنين الثقات وقال له: إنّ الرئيس الأعلى يريد أن يراه في الغرفة التي يعتكف فيها، وإنّه يريده في أمر سارّ.

دخل أبي المكان وكان الرئيس الأعلى يجلس في صدر الغرفة وبجانبه ولده وتوزّعت على الجانبين تلك الأسماء التي يثق بها ابن الرئيس، ثمّ شرع ابن الرئيس بوابل من المديح لأبي، وأخبره برضا الرئيس عنه وتقديره لمكانته الاجتماعيّة البارزة، وبثقته الكبيرة برجاحة عقله، وكان الرئيس يومئ برأسه دليلاً على قبول ما يقوله ولده، وبعد برهة تدخّل الرئيس بصوته المتهدّج ليتابع هذه المقدّمة، ويطلب بشيء من الهدوء والاحترام أن يخطبني لولده، كان الأمر مفاجأة لا تحمل ما هو متوقّع منها من سرور بالنسبة لأبي، لكنّه أظهر امتنانه لهذا الأمر وطلب مهلة ليستشيرني، ثمّ استأذن بالانصراف.

كان للرئيس الأعلى مكانة كبيرة عند والدي لكنّه كان في حيرة من أمره وهو لا يدري كيف سيواجه هذا الطلب، فمن سيرفض هذا النسب؟!

إنّ الارتباط بعائلة الرئيس الأعلى يعدّ مكافأة بسبب ما قام به من تضحيات في سبيل إسعاد المؤمنين، ومن اجتهاد في تطبيق معايير الدين بكلّ جلادة وصبر ومن قمعه المخالفين دون أن تأخذه فيهم لومة لائم، لكن ماذا عن العريس نفسه؟ ماذا عن طموحاته التي لم تكن تبعث في نفس والدي سوى القلق والشكّ؟

ثمّ ماذا بشأن إخوتي وبوجه خاصّ الأكبر منهم؟ الذي كان يكره ابن الرئيس، ويذكر عيوبه أمام الناس دون مواربة، بالإضافة إلى أنّني لم أبلغ بعد السادسة عشرة، أمّا هو فقد تجاوز الخامسة والثلاثين، وهو متزوّج باثنتين قبلي وأنا سأكون الثالثة.

في المساء جمعني أبي مع إخوتي، وعرض عليهم ما حصل في مجلس الرئيس الأعلى، فسادت لحظات من الوجوم الممتزج بالاضطراب، ولم يكسر هذا الحاجز سوى أخي الأكبر الذي قال: لا أظنّ يا أبي أنّك ستفكّر في الأمر، فإذا كان الرئيس رجلاً متديّناً قويم السلوك فإنّ ولده لا يمتلك شيئاً من صفات والده، فهو إنسان منحرف ناهيك عن تلك المجموعة التي أحاط نفسه بها، كما لا تنس أنّنا اتّخذنا موقف الحياد بعد تمثيليّة الاغتيال التي افتعلها بعد المحفل، ولا نريد أن نخسر مصداقيّتنا أمام الناس.

أمسك أبي بكأس ماء وازدرد منه جرعة وقال: يا بنيّ إنّ ما قلته صحيح وأنا أدرك ذلك جيّداً، لكنّ الرئيس الأعلى هو من طلب

منّي يد أختك، وأنت تعلم مركزه ومكانته، وأمّا بالنسبة لموقفنا فلن يتغيّر شيء فنحن لم نقف ضدّ أحد، ولن يفرض علينا أحد تغيير ما نحن عليه.

كان أخي يدرك تماماً ما يقوله أبي لكنّه شعر بأنّ شيئاً ما قد انكسر داخله، فماذا عساه أن يقول أمام الناس الذين اعتادوا على انتقاده الصريح لابن الرئيس؟ وهو يعلم حبّ أبي الرئيسَ إضافة للحزم الذي يميّز والدي في القرارات المصيريّة، فقال له: إذا كنت قد حزمت أمرك فأرجو أن تأذن لي بالرحيل عن الهضبة، صمت والدي لبرهة وكأنّما يحمل على كتفيه حملاً تنوء به الجبال، وطلب من أخي التمهّل قبل اتّخاذ مثل هذا القرار، لكنّ هذا ما حدث بعد ذلك فالأمور في كثير من الأحيان تسير وفق منطقها الخاصّ الذي يدفعها دون إرادتنا.

أمّا أنا فلم يأتِ أحد على ذكري فالفتاة في هذه الأمور هي آخر من يُؤتى على ذكرها، وارتسم في مخيّلتي خيال المرأة العجوز ونبوءتها عن العاصفة التي لن تستثني أحداً، وأحسست بأنّ حصّتي من تلك الرؤيا قد بدأت لتوّها وتخيّلت نفسي في قلب تلك العاصفة.

لم أكن أعرف عن ابن الرئيس إلّا بعض الأشياء البسيطة مثل احترام أبي لأبيه، لكنّني أعلم بأنّه كان السبب في انقسام الهضبة وتحوّل أهلها إلى فريقين متنازعين، ولم يتبادر إلى ذهني سوى

أنّه رجل استبداديّ، وهممت أن أرفض لكنّ شيئاً ما منعني فاستسلمت لقدري، وخرجت دون أن أنبس ببنت شفة، ورحت وارتميت على سريري محاولة إغراق رأسي في الوسادة لعلّي أموت قبل تلك اللحظة التي سيلمسني فيها مجرم كهذا، وبعد أيّام أبديت موافقة مبدئيّة خاضعة أمام العادات والتقاليد التي تمنع الفتاة من التمرّد على قرار والدها.

تلقّى أبي موافقتي بفتور، لكنّه أخبرني بأنّني لم أعد إنسانة عاديّة فأنا سأكون زوج ابن الرئيس وسوف تتغيّر حياتي، فهناك الكثير من المحظورات التي لا أستطيع تجاوزها.

كان يُخيّل إلي أنّي ذاهبة إلى حتفي، إلى قبري الأسود الظلاميّ الذي سأُحاسب فيه حساباً عسيراً، لم أتخيّل أنّي ذاهبة إلى حياة سعيدة، يا لهذا الكابوس المرعب، كنت أقاوم هذه الأفكار برغم حسد قريباتي اللاتي وجدنني جالسة على شرفة تطلّ على الفردوس.

طفل البدايات..

الفتى يروي..

كان حالنا في طريقه لأن يصبح بمستوى بيتنا الأرضيّ ذي المدخل المستقلّ ومستوى ثباته واستقلاليّته، يخيّم الهدوء على الحيّ أغلب وقته، وبدرجة مماثلة في مدرستي الجديدة، ومن حسن الحظّ أنّ الأمور بدت بشكل مثاليّ ومرضٍ للغاية.

رافقني أبي ليتعرّف على الجوّ العامّ في المدرسة وليطمئنّ على أحوالي، أنا أصل إلى كتفه في الطول ونحن نخطو إلى المدرسة، وكنت أفكّر أنّني بمجرّد أن أصل لطول أبي الكامل، سأغادر هذه المدينة فلم يعد بيني وبين الحريّة إلا بضعة سنتيمترات.

كان أغلبيّة طلّاب المدرسة من أهل البادية الذين انتقلوا إلى الشرق بعد أن بدأت المدينة تنمو بشكل سريع، والسبب في اختيارهم لهذه الجهة هو قربها من الصحراء التي عاش فيها أسلافهم، وليكونوا قريبين من إبلهم وأغنامهم، فعلى قدر الحنين يكون توجّهك.

ولكنّ المدرسة لم تكن تختلف عن مدرستي السابقة، المتشدّدون يضعون لهم مكاناً لا يمكن زحزحته، فأنت ترى بين كلّ ثلاثة واحداً منهم، ولكنّ الأجواء العامّة كانت بعيدة نوعاً ما عن الاحتقان الذي عهدته.

أغلبهم ما زال يحيا حياة الصحراء بعقله، ولكنّ جسده في المدينة، فالبادية هي من تهذّبه وتصقل طبائعه وليس المدرسة، فهم لا يعتبرونها إلّا محطّة عبور أو استراحة محارب، فمهما قضوا فيها من وقت إلّا أنّ طريقهم بعد مرحلة المدرسة معروفة.

كان البعض يعتبر هذه الفئة مثالاً عن التخلّف والرجعيّة، ولكن بالنسبة لي هي فئة مناسبة للغاية، حتماً ستنسيني ما تعرضت له في المدرسة السابقة، بالطبع لم يكونوا منزّهين فلقد كان الصوت العنصريّ المناطقيّ ضدّ ما هو دخيل على البداوة مرتفعاً، فلقد كانوا يقزّمون من الحضر وتتّسع الدائرة إلى أبناء الشمال والجنوب والغرب، كلّ طالب يُحاسب وفق لهجته التي يتحدّث بها، والتي سيتمّ من خلالها التنمّر على الآخرين، ولكنّهم بطبيعة الحال كانوا أقلّ سوءاً من غيرهم.

قبضت على يد أبي بقوّة بلا شعور منّي عند دخولنا ومشاهدتنا للمدير الملتحي، كان أبي قد التقط أنفاسه بعد أن تحقق من هيئته أنّه غير متشدّد.

يجلس المدير بكل ثقة وحزم بينما ينظر للغرباء الجدد بشكل متعالٍ وبعيد عن التواضع، هيئة المدير توضّح أنّه ابن عائلة مرموقة، فآخر اسمه ليس اسماً قبليّاً، وإنّما اسم عائلة يبدأ بال التعريف.

صافحه أبي معرّفاً عن نفسه وعنّي، وقدّم له ملفي الأخضر المكدّس بالأوراق غير الضروريّة منذ ولادتي بحكم شهادة الولادة

إلى آخر درجة مُنحت لي في الصفّ السادس، إضافة لعقود الإيجار وكشوفٍ عن رواتب أبي، والشهادات التي تُثبت أنّني غير متخلّف عقليّاً ولا مصابٍ بعاهة دائمة، قلّب الأوراق في الملفّ بشكل سريع وذهب لما يهمّه وهو درجاتي وشهادة حسن السيرة والسلوك التي لم ترفقها المدرسة السابقة بسبب مشكلتي مع المدير.

استغرب من تفوّقي في بداية المرحلة الابتدائيّة، ومن ثمّ انحدار مستواي التعليميّ، ومن عدم وجود شهادة حسن السيرة والسلوك، وكان المدير ينظر لأبي وكأنّه محقّق في الشرطة، ويريد تبريراً مقنعاً ليقبل وجودنا في المدرسة.

ويبدو أنّنا إن لم نجد مبرّراً لذلك فلن يكون هناك قبول، وسأطرد أنا وأبي من الباب الكبير للمدرسة غير مأسوف علينا، أو على الأقلّ فإنّه سيقول بأنّ المدرسة ممتلئة، ولا يمكن قبول طلبة جدد، إلّا أنّ المدير لم يخبرنا بهذا بيد أنّني شعرت بنظراته تخبرنا الأمر بكلّ وضوح وبيان.

كنتُ واثقاً بأنّني سأُطرد من المدرسة، أمّا بالنسبة لأبي فقد وجد أنّه لا طائل من اختلاق تبريرات غير صحيحة، فقرّر أن يخرج عن صمته ويُخبره بما تعرّضت له في المدرسة السابقة، كان أبي يشاركني الشعور باقتراب الطرد ولكنّ المدير ابتسم وسأل أبي:

- من أين أنتم؟

- من الهضبة الجنوبيّة.

عاود الابتسامة وقام بكلّ شغف عن كرسيّه، وصافح أبي بكلّ قوّة مرّة أخرى، وأخبرنا بأنّ أباه كان قاضياً هناك، وأنّه يملك طفولة جميلة في تلك الناحية، فتذكّر أبي ذلك القاضي الذي انتشر ذِكره في مسقط رأسنا، وكانت له قصّةٌ معروفة بين أهالي الهضبة حيث إنّه تزوّج من هناك، على الرّغم من أنّ زوجته كانت شيعيّة.

ضحك المدير وأوضح لنا وجهة نظره تجاه هذه العادات المنتشرة وقال: إنّ هذه المدرسة لا تختلف عن المدارس الأخرى، وتابع بطريقة ودودٍ كلامه:

- أنا هنا في هذه المدرسة، وابنك تحت حمايتي الشخصيّة.

ونظر إليّ بشكل مباشر ومُحفِّز، وقال:

- لا تفكّر في شيء، وما عليك سوى التركيز في دراستك، ولا تتدخّل في المشكلات، وأيّ اعتداء تتعرّض له أخبرني به شخصيّاً.

على الرّغم من أنّ أباه كان قاضياً، وذا توجّه دينيّ واضح كما يتذكّر أبي إلّا أنّه كان محبوباً بين الناس صاحبَ سمعة حسنة، وله مسيرةٌ تستحقّ الذكر عندما كان أحد أعضاء الهيئة القضائيّة في الهضبة الجنوبيّة.

وقبل أن يروي لنا المدير قصّة زواج أبيه بأمه جلب لنا فرّاش المدرسة الشاي، ومن ثمّ أغلق باب الإدارة وتابع حديثه قائلاً:

لقد كان والدي من أبناء زمانه متعصّباً دينيّاً للغاية، ولديه موقف عدائيّ من المذاهب والتيّارات الدينيّة الأخرى بشكل غير قابل للتفاوض فيه،

تخرّج من كليّة الشريعة وفي طريقه للتعيين كأوّل قاضٍ في عائلتنا، احتفلت القرية به، إلّا أنّه لم يكن يعتقد أنّ القادم يُضمر له الكثير، فقد تمّ تعيينه في الهضبة الجنوبيّة، وتحوّلت أفراح القرية بين ليلة وضحاها إلى عزاء.

حاول بكلّ ما استطاع أن يغيّر وجهة التعيين، ولكنّ الأمر كان قد صدر من أعلى سلطة ولا يمكن تغييره، كانت المعلومات عن مدينتكم شحيحةً ولكنّها تُغنيك عن معرفة ما تبقى منها، وعلى الرغم من أنّ عائلتنا وأهالي القرية لم يسبق لأحد منهم أن زار الهضبة الجنوبيّة، إلا أنّ هنالك إجماعاً من الجميع بأنّه ذاهبٌ إلى حتفه.

من الطبيعيّ أن تكره الأشياء بعد معرفتها، إلّا أنّ أبي قد كره مدينتكم قبل أن يعرفها أو يراها.

ضحك أبي وتساءل:

- وما المُريب في مدينتنا؟

أجاب المدير بابتسامة:

- مدينتكم تلد قضاةً بالفِطرة، يطبّقون العدالة في حينها، لذلك قضايا القتل لديكم لا تتوقّف، وهذا ما كان مشهوراً عنكم، وإليك بقيّة القصّة:

وصل أبي للهضبة الجنوبيّة مُكرهاً، وبعد مرور سنوات وجد أنّ الحياة فيها هادئةٌ على غير ما هو معروف عنها، وقرّر البقاء فيها أطول وقت ممكن، وربطته بالناس علاقات طيبة وكان الناس يحبّونه ويثقون به، وذات يومٍ لمح والدتي لأوّل مرّة كشاهدة في إحدى الجلسات القضائيّة التي تخصّ الوَرَثة وضحك المدير:

- اطمئنّ فالأمر كان محسوماً، فلم يتدخّل جمال والدتي في قراره القضائيّ.

وبعد المحاكمة بأيّام، وبعد أن قرّر أبي تحمّل عقبات ما سيُقدم عليه من أهله تجاه عمله، ذهب إلى بيت والد الفتاة ليطلب يدها للزواج.

في بداية الأمر عارض والدها بحكم أنّ والدي لا ينتمي للمدينة، ولا يعرف عاداتها وتقاليدها، لكنّ القاضي لم يتوقّف عن التردّد إلى بيت والدها لأكثر من مرّة، لقد كان إصرار أبي عجيباً إلى درجة لا تُصدّق، وفي نهاية الأمر وافق والدها على هذا الزواج، لقد

عاش والد أمّي بعد ذلك حياة قاسية في الهضبة الجنوبيّة بعد موافقته على الزواج.

عارض جميع الناس هذا الزواج، ولكنّ والدها أسرع بإقامة حفل الزواج المختصر، ووضع الناس تحت الأمر الواقع، لقد عاشت أمّي لفترة طويلة فترة صعبة وحيدةً فقد ابتعد عنها الأقارب، وعاملها أهل المدينة بازدراء وأحياناً بدونيّة؛ لأنها تزوّجت شخصاً غريباً عن مدينتها ومذهبها، ولكنّ القاضي أنساها كلّ تلك الغربة.

لكنّ أبي في حبّ أمّي لم يكن قاضياً، بل كان مجرماً متطَرِّفاً، لقد أحبّها بكلّ ما في هذه الكلمة من إقدام وقوّة وتضحية، وفي المقابل لم تكن له إلّا ملاكاً للرحمة، كانت تستقبله من الباب بعد يوم شاقّ من المحاكمات، وتعيد لملمته وترتيب أوراقه ليعود مرتاحاً قادراً على اتّخاذ أحكام دقيقة في جميع القضايا التي تُعرض عليه.

وبعد انتقالنا إلى المدينة البعيدة، انتهى الناس من حديث الهرج والمرج عن أمّي وزواجها من القاضي، وأُغلق الموضوعُ نهائيّاً لأنّها غادرت مع زوجها، ولم تعد مرّة أخرى للمدينة ولكنّها ما زالت تتذكّر الأيّام الجميلة التي عاشتها هناك، وتفتخر بالقيم النبيلة التي تتّصف بها المدينة.

ظلّت أمّي إلى وفاتها قبل سنوات تذكر مدينتها، ومسقط رأسها وتغرس فينا الكثير من القيم التي تعلّمتها في طفولتها، وكانت

تنتظر الفرصة لتكسر وعودها بعدم العودة للمدينة، ولكنّ الفرصة لم تأتِ فقد صعدت روحها إلى السماء وهي تتمنّى العودة.

تذكّر أبي قصّة زواج القاضي التي انتشرت في ذلك الوقت في الهضبة الجنوبيّة، ولكنّه لم يُخبر المديرَ بأنّ جدّي إمامَ المسجد كان أحد المعارضين لهذا الزواج، وأنّه ممّن تسبّبوا ببؤس والدها، حيث أمر الناس بنبذه كونه أتى شيئاً لم تعرفه المدينة من قبل.

على الرغم من تقوى وتديّن وحكمة جدّي، إلّا أنّه لا يحبّ الغرباء كثيراً، كان يرى أنّهم شرٌّ محضٌ، كما أنّ فلسفة الهضبة الجنوبيّة ترى أنّ تزويج الغرباء سيجلب التغيير، وهذا لم يكن محبّباً عندنا.

أنهى المدير قصّته مع الهضبة، وأخذ هو ووالدي يتجاذبان أطراف الحديث والودّ ومواقف المدير في صغره أيام الهضبة، أمّا أنا فقد كانت تلك اللحظة التي وجدت فيها مديراً يحميني من أجمل لحظات حياتي على الإطلاق.

وأخبرنا المدير بأنّ هنالك طلبةً ينتمون إلى مسقط رأسي، وبعد ذلك شكر أبي لمدير المدرسة حُسن استقباله وتعاونه، وغادر أبي المدرسة بكلّ سرور.

إنّني أَنعمُ ببدايات جميلة دائماً، إنّني طفل البدايات، لم أحبّ شمس هذه المدينة الحارقة كما أحببتها في تلك الأيام، والمبهج أنّني وجدت لي علاقات مع طلّاب من هضبتنا الجنوبيّة.

كانوا يفهمون لهجتي جيّداً، وبعد أيّام أتاني أحدهم وأخبرني بأنّ والده يريد التواصل مع أبي، فرح أبي بهذه المعرفة الجديدة، لطالما كان وحيداً محدود العلاقات، حتّى مع زملائه في العمل فقد كانت حدود معرفتهم له تقتصر على السلام والمصافحة وموضوعات عمليّة فقط.

وبرغم أنّ هذا الأسلوب يحرم أبي أن يُكوّن علاقات تحسّنُ من جودة حياته، إلّا أَنَّه كان يضع هويّته المذهبيّة في الحسبان لكيلا يضُرَّه أحد منهم، وينعكس ذلك على بيته وأهله، ولعلّ القول الفصل والحقيقة أنّ أبي لا يَأمن الناس كثيراً.

تكوّنت المعرفة بيننا وبين أهالي أصدقائنا في الهضبة، وفي مساء كلّ يوم كنت أبتسم وأنا أرى أبي يذهب بشكل دائم إلى أصدقائه الجدد آباء الطلّاب، كانوا مجموعة من الموظّفين في قطاعات متنوّعة والبعض الآخر يعمل في التجارة، وهناك رجال منهم يعرفون جدّي إمام المسجد من سمعته الجيّدة، وكانوا يقدّرون عائلتنا كثيراً، كما أنّ شخصيّة أبي ودودٌ، وتعكس النضج الذي أخذه من تعاليم جدّي له.

والأمر لم يتجاوز أمّي فلقد كوّنت علاقات هي الأخرى مع زوجات أصدقاء أبي الجدد، كنت أنظر لوالديّ وهما يستعدّان

ويتأنّقان بملابسهما للخروج إلى معارفهما، ففي يوم ما كان هذا الطفل سبب المعاناة لهما، والآن ها أنا سبب سعادتهما وسرورهما، ما أجملَ شعور أن تكون طفلاً ويدين لك هؤلاء الكبار بالجميل تجاه ما فعلته لهم! حتّى وإن لم يشكروك.

وكنوع من ردّ الدين لي قلّل والداي عن بيتنا الأكل والشرب وبعض التكاليف لإنهاء تركيب مجالس الأحلام الرجاليّة والنسائيّة، ليستقبلا فيها ضيوفهما من الأصدقاء الجُدد.

كان السؤال عندما أفتح الثلاجة وأجدها فارغة: ما ذنبي لأحقق أحلام هؤلاء الكبار؟ لم يدمِ الأمر أشهراً بسيطة حتّى تحقّقت أحلامهما بالانتهاء من تركيب أثاث المنزل، والبدء باستقبال الضيوف.

وفي أوّل زيارة حوّل الضيوف وأطفالهم بيتنا إلى دمار شامل، وكأنّه مرّ على أرض بيتنا جيش من المغول، أو تظنّ أنّ إعصار فلوريدا السنويّ ضلّ طريقه إلى بيتنا، ولعلّك ترى أنّ نهاية بعض الأحلام وخيمة، كتمت الضحكة في نفسي كنوع من الشماتة الخفيفة الظلّ على تلك الأيّام التي لم أجد فيها طعاماً يسامر وحشتي من أجل بعض الأثاث.

ضمّ مجلس أصدقاء أبي تسعة رجال؛ ثمانية منهم ينتمون إلى قرى الهضبة الجنوبيّة وواحد من باديتها.

كانوا يلعبون الورق بشكل هستيريّ، ويخوضون التحدّيات الدائمة التي تجعل جلستهم أكثر إثارةً، انغمسَ أبي معهم وكأنّه يعرفهم منذ العصر الجليديّ، وظلّت الروح الأخويّة تحميهم بشكل كبير، عندما تجد أشياء مشتركة كهذه مع الآخرين ستشعر بالراحة والاطمئنان لهذه العلاقات لأنّها تدوم لوقت أطول.

أمّا أنا فلقد كنت أتعّرض لبعض المضايقات، ولكن طلّاب الهضبة الجنوبيّة الذين يدرسون معي كانوا يدافعون عنّي وكأنّني قطعة ثمينة غير قابلة للمسّ، إلى درجة أنّنا اتّجهنا في يوم ما إلى أحد الطلّاب وضربناه جميعاً لأنّه تنمّر على أحد أصدقائي بسبب لهجته الجنوبيّة.

لأوّل مرّة منذ أن انتقلت إلى هذه المدينة أشعر بإنسانيّتي وقيمة طفولتي، لقد أهدرت السنوات الثلاث الأولى من وجودي في هذه المدينة، والآن تغيّرت وتطوّرت عندما أصبحت فرداً من مجموعة يهمّها أمري ويهمّني أمرها.

لم أكن أجد صعوبة فيما أقول وأفعل، كلّ هذه الأمور انعكست على هيئتي، أصبحت أتفنّن في اختيار الكلمات الخاصّة بأهل الهضبة الجنوبيّة، وأحفظ أغاني الهضبة كما أنّني أخصّص أوقاتاً لتمارين العرضة الشعبيّة، لأكون مستعدّاً للّحظة التي نجتمع فيها ونلعب

على وقع طربها، أعتقد أن مثل هذه الأشياء ستقرّب أصدقائي الجدد منّي أكثر فأكثر.

عندما كنت وحيداً وأتعرّض للتنمّر كنت هادئاً وميّالاً للسلم والمهادنة، أمّا مع الأوضاع الحديثة فقد زادت نزعتي للخلافات عن ذي قبل، ونمت في داخلي نقطةٌ سوداء من احتقار الآخرين، وكنت أبرّرها بأنّها من أجل الجماعة ولا شيء غير الجماعة، من أجل هؤلاء الأصدقاء الذين أريد أن أحافظ عليهم.

لاحظت أن شخصيّتي ارتدّت لي من جديد، مثلما يعود الماء للجريان في وادٍ ضربه التصحّر لسنوات ضوئيّة، فضلاً على أنّني بدأت أتعرّف نفسي التي انغمست طويلاً في مستنقع الظلمات وفي الأشياء التي كانت مبهمةً من حولي.

حتّى معالم المدينة البعيدة كنت أراها لأوّل مرّة بكلّ هذا الوضوح، وأصبحت بفضل حياتي الجديدة أحفظ شوارعها وطرقها، وأعدّ الأيّام فيها يوماً بعد يومٍ إلى أن انتهت السنة الدراسيّة الأولى في المكان الجديد.

لم يجد من يصلّي عليه

الفتى يروي..

كانت الأحداث في الهضبة الجنوبيّة قد اتّقدت شرارتها بشكل متسارع، وبدأت القطيعة بين الناس تأخذ منحىً أكثر صرامةً وجديّةً مقارنة ببدايتها.

تأتينا الأخبار بشكل تصاعديّ على الرغم من أنّنا نسكن المدينة البعيدة، فقد قرّر الرئيس الأعلى والموالون له أن ينبذوا المتعاطفين مع قضيّة الشاعر الصغير.

وبخلاف ما يعرفه جدّي من أنّ الكبار ورجال الدين والوجهاء ينهون هذه المشكلات سريعاً ويصلحون ذات البين قبل أن تصل لمرحلة خطيرة لا يمكن التدخّل فيها، فإنّ هذه القضيّة لم تكن كذلك، فالأحاديث بدأت تأخذ نطاقاً واسعاً وقد ظهرت فيها أسماءٌ جديدة.

كان جدّي والكبارُ من عائلتنا في الهضبة الجنوبيّة قد اعتزلوا الناس بعد هذه القضيّة، وظلّ جدّي يخبرهم في كلّ مرة بأنّ هذه فتنةٌ يجب على المرء أن يبتعد عنها، ولا يخوض فيها إلى أن تنطفئ نهائيّاً.

خبرة جدّي في الحياة كانت تقوده إلى مثل هذه القرارات، ومع مرور الوقت أصبح الناس يعرفون أنّ عائلتنا في الهضبة الجنوبيّة من المعتزلين عن الفتنة.

كان ابن الرئيس الأعلى لا يتقبّل جدّي كثيراً، ويعلم بعلاقته القديمة مع الرئيس الأعلى قبل تولّيه المنصب، وبأنّه ليس أداةً سهلةً في هذه الأمور، وبرغم أنّ جدّي قد قبل بزواج عمّتي ووافق على رحيل والدي من الهضبة من أجل قطع دابر المشكلات، وحرصاً منه على مستقبلنا إلّا أنّ ذلك لم يمنع ابن الرئيس من وضع جدّي في القائمة السوداء.

ولأنّ جدّي من المعتزلين، وممن رفضوا إبداء رأي تجاه هذه القضيّة قرّر ابن الرئيس أن يصدر قائمة جديدة لأسماء الداعمين للشاعر الصغير والمؤيّدين والمشكّكين وكان في مقدّمتها اسم جدّي، وبرغم أنّ الناس قد صُدموا من هذا القرار إلّا أنّ هذا لن يغيّر من العقاب الذي ينتظر جدّي شيئاً.

لم يعد يصلّي الناس وراء جدّي في المسجد، ولم يعد أصدقاؤه من الكهول يأتون إلى دكّانه القديم يتبادلون الأخبار، وكان الجميع مستائِين مما تمّ فعله لجدّي، ولكن من أجل رضا الرئيس الأعلى كان الأمر يستحقّ أن يحدث ما هو أكثر من ذلك.

بعد أشهر من صلاة جدّي وحيداً، قرّر أن يبتعد عن المسجد

لكيلا يهجره الناس ويبدو بلا عباد ومؤمنين، فلا روح للمسجد عندما لا يأتي البشر للصلاة والعبادة فيه.

كان قد خدم هذا المسجد وظلّ يصلّي بالناس أكثر من ستّين سنة، وطوال هذه السنوات لم يغب عن محراب صلاته إلّا أيّاماً معدودات إمّا لسفر وإمّا لمرض.

يعدّ المسجد بالنسبة لعائلتنا ولجدّي بصورة خاصّة البيت الوحيد والملاذ الآمن، وهو المكان الذي جعل الناس يحترمونه كثيراً ويأخذون برأيه ويعرفون حكمته ويطّلعون على غزارة علمه، لم يكن يتخيّل أنّه في يوم ما سيبتعد عن بيته الحقيقيّ ليقبعَ في الغرفة المظلمة وحيداً لذنب لم يفعله ولم يقدِم عليه ولم يدعمه، وكلّ ما فعله هو الاعتزال وعدم إبداء أيّ رأي يخصّ الفتنة، وما زاد في تعميق أحزان جدّي زواج عمّتي من ابن الرئيس، فما عساه أن يفعل حيال ذلك؟

ذهب جدّي في أكثر من مناسبة للرئيس الأعلى ليوضّح له ما حدث ويقدّم الاعتذار في حال أنّ صمته كان خطأً، ولكنّ الخادم في بيته كان يخبره بأنّ الرئيس لا يستطيع استقباله.

كانت هذه الأوامر الصارمة من ابن الرئيس فالسماح بالدخول على الرئيس كان بيده شخصيّاً، لكي يضمن ألّا يؤثّر أحدٌ على قرارات أبيه التي اتّخذها، كان يعلم بأنّ رجاحةَ عقل أبيه وطولَ

العشرة والخبزَ والملحَ اللّذين تبادلهما أبوه مع الناس قديماً ستغيّر من خطّته، فقَرَّر أن يمنع دخول الناس عليه إلّا من يرتضي هو دخوله.

مرّت الأيّام والشهور ودخل جدي في حالة مرضيّة حادّة وبسببها وصل إلى حالة من الهذيان، إنّ قطيعةَ الناس وشعورَه بالوحدة وابتعادَه عن مسجده الذي يعرفه منذ عقود سبّبت له الأمرّين فتدهورت حالته بشكلٍ مفاجئ.

عاشت العائلة حالة من الهلع والريبة بهذا المُصاب الجسيم، ولم يكن بمقدورهم فعلُ أيّ شيء، كان جدّي يعلم علّة نفسه ودواءها ويعرف أنّ هذه المشاعر الفظيعة التي يشعر بها لن ينقذه من عذاباتها إلّا رضا الرئيس الأعلى عنه وعودتُه لحياته التي تعوّد عليها.

ومن فرط الهذيان كان أعمامي يعتقدون أنّ جدي يقول كلاماً غير مفهوم، لقد كان يخبرهم عن شيء لم يعرفوه، لقد اعتقدوا أن أعراض المرض تمكّنت من جسده الضامر، ولكنّهم لا يعرفون أنّ ما كان يقوله هو حقيقة آخر العمر.

لقد كان يردّد جملة بين الحين والآخر وهي:

- إنّها وقعة الباب العلا
- إنّها وقعة الباب العلا

وكلّما استفاق من هذيانه وسأله أعمامي عن قصّة الوقعة كان

يُحجِم عن ذكر تفاصيلها، وكأنّها سرّ اؤتمِن عليه، وعندما اشتدّ عليه المرض كثيراً قرّر أن يطلق العنان لهذا السرّ ويخرجه من مخبئه.

«لقد عشت بالقرب من الرئيس الأعلى السابق زماني كلّه واقتربت منه أكثر في آخر أيّامه، كنت أقرب الناس إليه والمُؤتمَن على سرّه، وقبل أيّام قليلة من وفاته وبعد صلاة الفجر وفي جوّ من السكون الذي طالما أحبّه المؤمنون، نظر للباب الأعلى للمسجد الكبير، وكان يصرخ عالياً: ألا ترى ما أراه يا بنيّ؟ ولكنّني لم أرَ شيئاً ممّا يراه، فقال: إنّ الأتباع ينهش كلٌّ منهم لحم أخيه حيّاً، انظر ألا تراهم، إنّهم يتقاتلون بالأسلحة البيضاء وكلّ شخص منهم يهمّ بقتل الآخر، ظلّ الرئيس السابق ينظر مطوّلاً وذرفت عيناه الدموع ثم مضى وأكمل باقي يومه.

توفّاه الله، وأنا أعتقد أنّ ما كان يقوله ليس إلا حديثَ الشيخوخة التي أثقلته بما لا يُحتمل، وبعد سنوات من تقلّد الرئيس الجديد حدث ما دمعت من أجله دموع الرئيس السابق.

إنّي مُشفقٌ عليكم يا أبنائي ممّا سترونه في حياتكم الباقية، إنّها فتنة لعن الله من أيقظها»

رفض جدّي الذهاب إلى المستشفيات للعلاج من تدهور حالته الصحيّة، وكذلك لم يقبل بالتعاون مع الأطبّاء الذين يزورونه في البيت ليطمئنّوا على حالته الصحيّة، لم يكن يتناول أدويته بل يرفض

تعاطيها، تكالبت على صدره الأمراض وامتلأت رئتاه بالماء، وفي كل يوم تتراجع حالته المرضيّة ويسوء وضعه الصحيّ، وبذل أعمامي الغالي والنفيس لإنقاذ جدّي، لكن لم يستطع أحدٌ إنقاذه ممّا فيه، كان ينهار أمامهم دون أن يفعلوا شيئاً، ولكنّه اختار طريقه وقرّر المضيّ قُدماً دون أن يرجع، وفي ظهيرة آخر يوم في السنة توفّاه الله.

مات وهو يناجي الأفق بأن يبتسم له الأملُ، وأن تنتهيَ هذه الغمّةُ ويرجع الناس لأحسن أحوالهم، مات وهو يحلم بأن يعود لمسجده ولرفقته من الكهول وأن يعود من حوله إليه من جديد.

كان أبناؤه يعلمون سبب وفاة أبيهم، يعلمون بالوحدة التي شعر بها، وبحالة الاكتئاب التي عاشها، فقد أنزله القدر من مقدّمة الرجال الأوائل إلى الهامش، ومن ثمّ إلى الفراغ ثم الانهيار الكبير ليتلاشى من ذاكرة الناس.

كانت الأحداث تعرف طريقها جيّداً إلى جسده وتفكيره مهما اعتقدَ أنّه قويٌّ لتهميشها أو تجاوزها، لقد نخرت الهموم ذلك الهيكل العريق بكلّ ما أوتيتْ من قوّة إلى أن أسقطته كما تُسقط الزلازل الرواسي.

كان الرئيس الأعلى يمثّل لجدّي الحياة كلّها، فقد عرفه صغيراً وتشاركا السفر إلى الأماكن المقدّسة وحلقات الدراسة الدينيّة، وخاضا غمار هذه الدنيا معاً.

ظلّ جدّي يكفّن الأموات ويغسلهم ويصلّي عليهم، ولكنّه عندما مات لم يجد أحداً ليصلّي عليه سوى أهله والمقرّبين منه.

أرسل الرئيس الأعلى تعازيه الحارّة على وفاة جدي، ولكنّ أعمامي لم يردّوا على تعزيته، واعتبروها تعزية شامت بموت عدوّه، ولم تكن تعزية إنسانيّة على الإطلاق، حنقت عائلتنا بشكل كبير على الرئيس الأعلى وابنه، وقرّر أعمامي ألّا يتركوا حقّ والدهم الميّت، أمّا عمّتي فقد سمح لها زوجُها أن تأتيَ إلى العزاء وتعود مباشرة إلى منزلها، وقد التزمت بذلك خوفاً من أن يقوم زوجها بحرمانها من ابنها، فلا قوانين في الهضبة تعلو قوانين الاستبداد والقبليّة التي تمثّلها رئاسة الطائفة.

أقمنا العزاء في الهضبة الجنوبيّة، وبعد انقضاء أيّامها الثلاثة عدنا مع والدي إلى المدينة البعيدة، وكان الحزن قد خيّم على أجوائنا.

ترك جدي فراغاً كبيراً لا يمكن ملؤه، لم أرَ أبي يبكي ذلك البكاء المتواصل الذي لا تستطيع أيّ قوّة أن تُهدّئ منه، وصلنا إلى البيت وكانت الحياة تسير ببطءٍ شديد، فلم تعد حكمة أمّي مفيدةً ولم يستطع مرحي إضفاءَ أيّ شيءٍ مختلف حتّى يعودَ أبي إلينا كسابق عهده.

توافد الناس من عائلات الهضبة الجنوبيّة لتعزيتنا في هذا الفقد، بينما فقد أبي شغف الحياة والأصدقاء لفترة، وبعد ثلاثة أشهر بدأ أبي بالعودة إلى وضعه الطبيعيّ بشكل تدريجيّ.

اقتنع أبي بأنّ الحياة لن تقف على قبر أحد، مهما كانت منزِلته، فإمّا أن تُكملَ مسيرة من سبقوك وتخوضَ غمار هذه الحرب الطاحنة مع الحياة، أو تسلّمَ نفسك لملك الموت ليأتي من هو خير منك لإكمال المسيرة، تذكّر أنّ التحدّيات تنتظره، فأسرته ما زالت تحتاجه في هذه البقعة الضبابيّة من العالم.

نهض أبي من سُبات الفقد الطويل لكنّ النهوض كان متأخّراً، فلقد تغيّرت أشياءُ لم يكن يعتقد أنّ التغيّر سيطالها حتّى في أكثر الأماكن بُعداً عن مسقط رأسه.

حاول أبي الاتّصال بأصدقائه، والاجتماع معهم راغباً في استعادة الأيّام الجميلة التي قضاها معهم في السنة الماضية، ولكنّه لاحظ أسلوباً مُريباً ميّزهم جميعاً.

كانوا لا يريدون الحديث مع أبي ولا الالتقاء به، ظنّ أبي أنّ الأمر لا يعدو كونه انشغالاً لا أكثر، قرّر بعد ذلك الاتّجاه إلى المكان المُعتاد الذي يجتمعون فيه، دخل عليهم وحيّاهم، ومن ثمّ قاموا للسلام عليه، ولكنّه لم يكن سلام الغائب منذ فترة طويلة، ولا سلام الأصدقاء الذين اشتاقوا الغائب منهم، كان السلام أشبه بأن تلتقي بعدوّ جمعته بك المصادفة.

جلسوا ساكتين ينظرون بعضهم لبعض، وعلى استحياء كانوا يتحدّثون بعضهم إلى بعض، حاول أبي اختلاق الأحاديث ولكنّه

لم يشعر بالتفاعل منهم، شعر بشعور غير المرغوب فيه، وقرّر الانسحاب بحجّة أنّ لديه مشاغلَ كثيرةً، كان كلّ شيء يظنّه أبي يُمكن أن يحدث، ولكن أن تنتقل عدوى الهضبة الجنوبيّة إلى مكانه في المدينة البعيدة كان أمراً خارج الحسبان.

خرج أبي وفي طريقه لركوب سيّارته المركونة، ناداه أحد الأصدقاءِ الموجودين وقال له: إنّ المجموعة قرّرت بالإجماع أن تبتعد عنه بسبب القرار الذي اتّخذه ابن الرئيس الأعلى بشأن جدّي وعائلته، وكان الصديق ينصحه بأن يعود لله ويطيع وليّ الأمر.

شكر أبي للصديق كلّ تلك الأوقات الجميلة التي قضاها معهم وعلى النصيحة غير المقبولة من ثمّ ذهب إلى البيت.

شعور سيّئٌ داهمه، وفي طريقه للبيت الذي لا يعلم كيف وصل إليه قرّر أن يجعل الأمر طيّ الكتمان عنّي وعن أمّي لكيلا تتأثّر علاقة أمّي بزوجات الأصدقاء وعلاقاتي مع الأبناء.

ولم تتجاوز خطّة أبي المرسومة ثلاثة أيّام، فصديقات أمي بدأن بالاعتذار منها، ولكنّها كذلك جعلت الأمر طيّ الكتمان لكيلا أتأثّر أنا وأبي بما تتعَرَّض له من نبذ.

وفي صباح يوم الاثنين كنتُ كعادتي أسير مع الشروق ذاهباً للمدرسة، كانت الأجواء العامّة في نظري مبهجةً إلى حدّ تستطيع أن تقفز معها من الفرحة، وبعد انقضاء الحصص الأولى ذهبت

للساحة للقاء أصدقائي، كانوا جميعاً متّفقين على عدم الحديث معي وطال سكوتهم، وبعد محاولات منّي لم أجد أيّ ردّة فعل لها، أمسكت أقرب شخص فيهم إلى نفسي من ردائه الأبيض لأقول له: ماذا الذي فعلته تجاهكم أخبرني هل بدر منّي شيءٌ؟ ولكنّه دفعني بقوّة، وقال: نحن لا نتكلّم مع العصاة، ما هذه الكلمة الجديدة؟ بدأت بتوبيخهم وإطلاق أقذع الألفاظ لهم و لم أترك كلمة سيّئة لم أوجهها لهم دون استثناء، ولكنّني تفاجأت بخمسة منهم يتّجهون إلى ضربي، لم أكن أشعر بضربهم فتلك الضربات لم تكن مؤلمة ولا مؤذية، وأثناء وقوعي على الأرض، كانوا يقولون لي: أنتم من المنبوذين ومن المقطوعين ولا نتشرّف بك معنا.

لم تكن الكلمات التي قالوها لي دارجة على ألسنتهم بالعادة، فأوّل مرة منذ أن عرفتهم تتفوّه ألسنتهم بهذه العبارات الغريبة.

في تلك اللحظات استحضر شريط ذكرياتي حادثة الأولاد الذين لعبت معهم كرة القدم عندما قدمنا لهذه المدينة، عندما قالوا لي: لا نستطيع اللعب معك لأنّك شيعيّ، ولكن من كان يضربني الآن ويقصيني هم شيعة مثلي، أبناء جلدتي، أسلافنا تشاركوا الغناء والجوع والقهر والحروب، وكتبوا أسماءهم بماء الذهب على صفحات التاريخ، كانت المشتركات بيننا بعدد حبّات الرمل في الصحراء القاحلة، ومع ذلك كانوا أقسى عليّ من كل الحروب المذهبيّة التي عاشها الإنسان منذ بدء الخليقة.

ظلم الأخ أكثر وقعاً على نفس المرء من وقع الحسام المهنّدِ كما قال الشاعر، ظلم من اعتبرته أخاً عاش معك وتشاركت معه كلّ الانتصارات والخيبات، أقسى من ظلم الغريب الذي لا يعرف عنك سوى ما يتصوّره فقط.

انتهى ضربهم لي بعد أن تدخّل المدير وكان متفاجئاً من عراك أبناء الهضبة الجنوبيّة بعضهم مع بعض، عاقب المدير الطلبة بضربهم وإيقافهم في الشمس لباقي اليوم الدراسيّ بينما جعلني أذهب إلى حصّتي الدراسيّة.

كادت البراكين المشتعلة أن تفجّر صدري، لم أبكِ وأنا في أمسّ الحاجة للبكاء، فهذا المجهول الذي لا أعرف مصدره ولا مصدر الكوارث التي يسبّبها لي يمزّقني شرّ مُمزَّق، إنّها نقطة عمىً تدفع لي بشرورها لأواجهها وحيداً، وأصبحتُ لا أعرف أين الخلل! لماذا كلّ ذلك يعود للحدوث لي مرّة أخرى؟!

خرجت من المدرسة بعد نهاية اليوم الدراسيّ، دخلت المنزل ووضعت قُبلةً على رأس أمّي التي بدا أنّها حزينةٌ، ولكنّني لا أفهم هذا الحزن الطارئ على محيّاها الطاهر، سألتني بشكل معتاد عن يومي فأجبتها بأنّه جميل، وفاجأتُها بأنّني أريد أن أنتقل من هذه المدرسة، فتساءلت عن السبب فكان جوابي: إنّني لم أعد أريد العودة لها، ومن ثمّ انطلقت دموعي متّجهة في طريقها وبلا شعور.

ضمّتني أمّي إلى صدرها المحيط؛ ذاك الصدر الذي لطالما اشتقت لأن أرتمي عليه وألّا أفارقه أبداً، كانت تصرخ وتناديني: ابني، ابني ماذا بك؟! فهمتْ ما حدث لي دون أن أقول لها شيئاً، كانت تبكي وهي تقول: ما الذي فعله بك هؤلاء الأنجاس؟! لا تبكِ يا صغيري، إيّاك وأن يشغلوا بالك فنحن هنا معك ومن أجلك.

بعد أن هدأتْ أعصابي أخبرتها بما قد حدث لي في المدرسة، عندها علمت أمّي بأنّ الأمّهات قد أمرن أبناءهن بتجنّبي بشكل نهائيّ، أتى أبي إلى البيت بعد يوم عمليّ متعب، طلبت أمّي منّي ألّا أخبرَ أبي، وقالت بأنّها ستخبره بطريقتها بكلّ ما حدث معها ومعي لعلّه يأخذ حذره من أصدقائه.

وفي مساء ذلك اليوم أخبرتْ أمّي أبي بكلّ شيء، ولكنّنا تفاجأنا بأنّ أبي تعرّض للحدث نفسه مع أصدقائه، ظلّ أبي يواسينا على هذا الفقد، وقال بأنّ الحياة لن تقف عند أحد، فها هو جدّي غادرنا وما زالت الحياة مستمرّة، أمّا هؤلاء فلقد بيّن لنا الله معدنهم وحقيقتهم.

- اعلموا بأنّه يجب ألّا تحزنوا على من يبتعد عنكم لسبب لم تقوموا به، فهذه نعمة إلهيّة تدخّلت لأبعادهم عنكم.

رغم أنّ أبويّ ضدّ أن يتغيّب ابنهما يوماً واحداً عن المدرسة إلّا أنّهما سمحا لي بالغياب بقيّة الأسبوع الدراسيّ، وعادت أمّي لطريقتها المعتادة لترمي طوق النجاة لعائلتها الغريقة، في الحقيقة كنّا

في البيت نغرق جميعاً، ولم يحدث أن ساعد الغرقى بعضهم بعضاً ونجَوا من الغرق، لذلك فمهما حاول أبواي أن ينقذاني فجميعنا في مركب واحد.

دخلتُ على أبويّ في صالة البيت ولم ينبسا ببنت شفة، تأخذهما تعقيدات التفكير من المجهول القادم المحيط بنا نحو عوالم بعيدة، فلم تعدِ المدينة والتاريخ وروابط الدم وأبناء المذهب الواحد يشفعون لنا.

كان أبي في وقتٍ سابق قد قدّم أوراقه من أجل العودة للعمل في الهضبة الجنوبيّة ولكنّه تراجع وسحب الطلب؛ فأن تمزّقك الغربة أهون من أن تمزّقك مدينتك.

عندما تتفجر النقيصة

الفتى يروي..

في القدم كلّما سارت أمور المدينة إلى الخراب والهاوية ولّى أسلافنا أوجههم برجاء وتواضع إلى الرياح القادمة من الغرب، لعلّ في صريرها الذي يشقّ الجبال نبأً عن الضيف الغائب.

يجلسون قبالتها كأنّما يستقبلون القِبلة وهم ينظرون للأفق الغربيّ، ويرتّلون الصلوات على أمل ألّا يكون قد ضلّ الطريق نحوهم.

يطول الوقت بنظرهم ويقلّبون كفوفهم ليفرزوا منها ما استطاعوا من احتمالات، لعلّ حُجّة الغياب لا توصلهم لما يخافون عقباه.

نعم كلّما طال الغياب ازدادت مخاوفهم، كان الواقع مظلماً وهذا الغياب حتماً سيجعل هذا الظلام أكثر حلكة واسوداداً.

انتظارهم لم يكن صبراً ولم يكن خياراً، ولم يكن في وسعهم أكثر من ذلك، فوصوله سينسيهم الخراب والتعب في آن واحد.

إنّه النبأ العظيم، رأَوا السحب تتراكم وتتغيّر ملامحها الوديعة إلى وجه آخر من أوجه الغضب، إنّها قادمة إلى ديارنا القاحلة، لم يكن القحط يُعنى بالأرض فقط بل يشمل النفوس والضمائر.

كان حكماء المدينة يعاملون الغيوم كضيف عزيز عليهم، يستمدّون حكمتهم من طبيعته ومن تقبّله لهم ومن غضبه عليهم، لقد كانوا يستعيرون أحكامهم منها.

يقولون: لن ترى الوجه الحقيقيّ للمرء إلّا عندما يغضب لأنّه يُخرج ما حاول إخفاءه، وكذلك وجه الغيم والسحب فإنّها عندما تغضب فإن الحقيقة تظهر على هيئة غناء ومحبّة وصفح.

لقد تعدّى الحكماء كلّ مألوف، وزعم بعضهم أنّ للماء والسماء تأويلها الخاصّ فهما يمثّلان العلم، وبرّروا ذلك بقولهم: إنّ الماء والسماء أشبه بلطائف العلوم لأنّها يحوّلان النفوس الجرداء والمتصحّرة إلى حياة تستحقّ أن تُعاش.

علّمتهم السحب أنّ أحبّ الحقائق للنفس هي ما تأتي على هيئة مطر، يخترق بحبّاته اللطيفة والعذبة كلّ شيء ليحيا.

عندها يهرولون بأقدامهم الحافية على رمضاء الصحراء، وينزعون عمائمهم البيضاء ملوّحين بها للغيوم لكيلا تبتعد عن أماكنهم، وتبقى هنا إلى الأبد.

أمّا الناس فتتغيّر سلوكياتهم الفجّة والغليظة طالما كانت الغيوم فوقهم، لا يناكفون في حضرتها ولا يتشاكسون فيما بينهم ويخفضون من أصواتهم لكيلا يزعجوا هذا الضيف الرماديّ اللطيف.

كان أسلافنا ينتظرون من الضيف أن يعيد لهم ذكرياتهم الجميلة،

كانوا يعيشون قبل القحط في بقع خضراء تتلاقى فيها أغصان الأشجار المنتصبة من ضفتي الوادي.

لم يكن قد عرف العالم في حينها كلمة العدل والمساواة، فإمّا تكونُ الحياة كلّها قحطاً وإمّا تكون كلّها خضراء.

عندما ينهمر وابل الضيف الغزير على أرضهم يسرعون ليقلبوا أوجه الأشياء الجامدة التي لا إحساس لها لتبدو خاضعة مستسلمة وشاكرة، ليس لتحتمي من المطر إنّما ليطربَ العالم لصوت وقع القطرات عليها، ليفجّر أسلافنا الأحاسيس من جوف الجمادات، إنّها موسيقى الفلاحين الخالدة.

عبرت سحب الأسلاف من فوق الهضبة الجنوبيّة، وقطعت كلّ تلك المسافة إلى أن جثمت بكامل وزرها وعنفوانها على المدينة البعيدة، كلّ قطرة تسقط على رأسي ورأس أبويّ تخترق أجسادنا لتستقرّ مُشكِّلة هالة من الأمل الذي طال به الأمد ولم يعد يزور مخيّلتنا.

ظلّ أبي يسترجع على مسامعنا قصص أجداده، يعلم أبي بأنّ هذه المحنة التي نتعرّض لها من متعصّبي المدينة البعيدة والهضبة الجنوبيّة كفيلةٌ بأن تجعل الطفل يكره كلّ ما يتعلّق بهذه الأماكن من ماضٍ وحاضر ومستقبل، فحدثٌ كهذا يرهق المعمّرين في الأرض، فكيف بفتىً لم يتجاوز عمره الخامسة عشرة؟!

استبدل أبواي بمهنتهما وأصبحا يمتهنان قصّ الحكايات، يتناوبان سرد القصص عليّ، فالمجهول لا يبشّر بالخير والحاضر أحمق كما هو ولا طريق لأن نعيش إلّا في التاريخ.

كان التاريخ الذي تسبّب بطريقة أو بأخرى بحالنا هو المنقذ الوحيد لنا من الحاضر، لقد أوجدني التاريخ في هذه المدينة وحمّلني التاريخُ وزر هذا المذهب، وأعطاني سمّاً لعائلة في مكان غير مناسب.

في الوقت نفسه كنتُ أحبّ هذا التاريخ فكانت مخيّلتي تقودني إلى الأسئلة أنفسها في كلّ مرّة ينتهي فيها أبواي من السرد، كيف انتهت هذه القصص العظمية التي خلّفها أجدادنا الذين كانوا يطوون الجبال ويضعون نجوم السماء في جيوبهم، وينقلون الرمال أينما ذهبوا لكيلا يضيعوا في دروبهم بتلك الكومة من المتعصّبين؟ كم من عائلةٍ أو فردٍ مكلومٍ داسته هذه القطعان الغبيّة بدون شفقة أو رحمة.

الكارثة هي أنّ حفنة المتعصّبين يدّعون أنّهم دعاة الرحمة، ومعبّدو طرقِ الله في أرضه، وأرحم على الناس من أنفسهم، لقد ادّعى المتعصّبون كلّ تلك الامتيازات ليحكموا الناس أينما ذهبوا.

لقد كان أبواي انتقائيّين للغاية في التاريخ، يرصدان منه ما يلائم حاضرهما معتقدين أنّ هذه المعارف ستنقذني، أو ترسم الأمل في مخيّلتي وهما لا يعلمان بأنّ كلّ ما فعلاه هو تحويلي من إنسان إلى سؤال يكبر مع الأيّام.

نعم، إنّني سؤال يبلغ من العمر مئات إشارات الاستفهام، سؤال يتمدّد كصحراء لا حدود للنظر فيها، بل أسئلة لا عيون ولا أنهار ولا تلال خضراء تتقاطع معها، جرداء لا رائحة لها ولا طعم فيها.

لم يبقَ منّي في المدرسة سوى جسدي الحاضر واسمي الذي يذكره المعلّمون قبل بداية الدرس، وكأنّ وظائفي الحسّيّة تعطّلت ولم يبقَ منها سوى حاسّة السمع، حتّى هذه الوظيفة لا تقوم بدورها بإدخال المعلومات لعقلي، لقد تحوّلت أذني لأداة استشعار ترصد الأخطار المحدقة حولي.

أمّا في داخلي فلقد كنتُ أعيش فقط، أُكوّن الشخصيات والقصص والمؤامرات والأغاني، أصنع الشخصيّات البطوليّة وأقتلها بدم بارد وأُظهر شخصياتٍ من العدم لتعيد كلّ شيء لفوضاه المعتادة.

أدمّر المتعصّبين في قصصي الجوفاء، فمتعصّبو المدينة البعيدة أستعبدهم، ومن ثمّ أمارس عليهم كلّ ما نعتوني به بكلّ حذافيره غير مأسوف عليهم، لقد كنت أقطع يد ميّتهم اليسرى، وأنتهك أعراض نسائهم بقلب بارد، أقودهم كما يقود الراعي قطيعاً من الأغنام.

دون أن يشعر أحد ممّن حولي بأنّ داخل هذا الجسد حياةً غير الحياة الواقعيّة التي أعيشها، لم يسبق لمرحلة مراهقة أن تكوّنت بهذا الشكل، ولا لبراءة طفل أن تحولت لكلّ تلك النقمة.

استنفد أبي كلّ محاولاته لحمايتي غير أنّني أدركتُ أنّه لا يستطيع تغيير كلّ الأشياء، كان يخطّط لأن يعيدني لمسقط رأسي في الهضبة الجنوبيّة، ولكنّ الأوضاع هناك أصعبُ ممّا هي عليه هنا، فالأمور هناك لا تبشّر بالخير، ومع مرور الوقت اتّضح أنّ الناس ليسوا إلّا حطباً لقضيّة خاسرة، وأنّ الأمر لا علاقة له بدين الله، فالأمر لا يعدو كونه فرصةً لتطويع الناس باسم الدين أمام رغبات الحاقدين والمتعصّبين.

في يوم من أيّام المدرسة الجديدة التي نقلني إليها والدي لاستكمال التعليم الثانويّ، كنتُ أتفادى الحديث مع الطلبة؛ لأنّني أتوقّع النيّة السيّئة قبل الحسنة.

قطعت على الآخرين كلّ طرق التواصل معي، وكان مستواي الدراسيّ المتذبذب يحميني منهم، لقد تطلّب ذلك الأمرُ تهميشَ نفسي، ووالداي آثرا عدم الضغط علي لكيلا أنهارَ بينهما.

أشبه الفراغ بشكله ومضمونه، غير أنّ الفراغ مفيدٌ ينقل للبشريّة الأوكسجين بينما أنا كنت للآخرين فراغاً ينقل الجراثيم والأوبئة.

كنت متصالحاً مع كوني أقذرَ المخلوقات على وجه البسيطة طالما

أنّ ذلك سيُخرجني من المدرسة دون أدنى مشكلة لي ولأهلي، قذراً بهندام نظيف بمال أشرفِ رجل على وجه الأرض، هندامٍ غسلتْه له أطهَرُ أمّ على وجه الأرض، قذراً بتربية صالحة، قذراً من سلالة الأبطال والأمجاد قادماً من مسيرة الأجداد العِظام.

قناعتي بدأت تتّخذ طريقها إلى الحكمة، كان كلّ أملي هو أن أعود لأهلي بلا أخبار ولا أحداث، فهذا سيشعرهما مع مرور الوقت بأنّني لم أعد عبئاً عليهما، كما أنّ اليوم الذي لا يُذكّرني فيه الطلّاب بهويّتي الشيعيّة أو لُكنتي الجنوبيّة الخالصة التي تقودهم إلى استنتاج مذهبي، أو لا يُذكرُ اسم عائلتي الأخير هو بمثابة أملٍ لأن أعيش يوماً آخر بكلّ سلام.

كان طلّاب الثانويّة يعيشون بداية مراهقتهم كنصف رجالٍ ونصف أطفالٍ، يتباهون بالتعبير عن أنفسهم حتّى لو كان على مستوى تدمير الآخر.

أمّا في هذه المرّة فكانوا قد ابتكروا تنبيهاً عن وجودي في عالمهم بشيء جديد لم يمرَّ عليّ في فترات البؤس السابقة.

لقد كتب أحدهم اسمي الأوّل والأخير على ظهر باب أحد حمّامات المدرسة، أكسبني هذا الإعلانُ شهرةً أسرع ممّا لو تمّ إعلان ذلك عبر مذياع المدرسة، أو بكتابته بالمانشيت العريض في الصفحة الأولى من الجريدة الأكثر قراءةً في هذا البلد.

تحوّلت إلى أشهر من نار على علم تمنّيت في حينها لو أنّي وُصفتُ بأدنى الأوصاف، كأن أُتّهم بالانحلال الأخلاقيّ أو الشذوذ، بدلاً من أن يتمّ إعلان انتمائي المذهبيّ على ظهر باب حمام، على الأقلّ سأجد المدير أو المدرّسين يدافعون عنّي.

تعتلي وجهي ابتسامة عريضة، كمن يتذكّر لحظة خاصّةً وجميلةً وهو في طريقه لساحة الإعدام، وأنا أشاهد اسمي في أكثر الأماكن قذارةً على الإطلاق، لا توجد عدالة إلّا في القاع، وضعوا الشخص المناسب في المكان المناسب.

كان يتمتّع الخطّاط الذي وضع اسمي على ظهر الباب بموهبة فائقة وخطّ متناسق، ومن خطّه عرفت أنّه أحد الزملاء في صفّي، كان هذا الطالب من الإخوة المتعصّبين، يرمقني بنظرات عدائيّة طوال الوقت إلّا أنّني لم أكن أعيره انتباهاً.

لم يكن هناك مبرّرٌ لأن يفتعل معي الشجار وبدلاً من ذلك فجّر موهبته الإبداعيّة بالتشهير بي، برغم أنّي لم أتّخذهُ عدوّاً لي إلّا أنّنا كنّا نتشابه في كوننا جبانين، وكلٌّ منّا ماهرٌ في جبنه، فهو أجبن من أن يفرغَ بغضه وعداءه بمواجهة واضحة؛ كأن يختلق مشاجرة ليضربني بأقصى ما يمتلك من قوّة لديه، ويطفئ الحقد الذي يختلج في صدره، أمّا أنا فببساطة كنتُ جباناً أُفضّل العيش بسلام.

وتقتضي المراهقة لدى الطلاب فعل ما تدفعهم إليه غرائزهم من أفعال، ومن هذه الأفعال كان التنمّر على شخص مثقلِ الخطوات أعزلَ يمشي مترنّحاً وحيداً في ساحة المدرسة، يَخفض رأسه وكأنّه يحاول حلّ مسألة علميّة معقّدة، ويحاول أن ينعم بما تبقى منه كإنسان.

لقد ألقت الشمس القبض على صباح ذلك اليوم، تتسرّب الخيوط الحارّة بعد انعكاسها من الإسفلت لتأخذ طريقها إلى أعيننا، بينما كنت أهيمُ بوجهي الضعيف وملامحي المتداخلة التي تشبه لوحة تكعيبيّة.

أخذت الأمور منحنىً أكثر جديّة من السابق، أحد الطلاب ضربني بكتفه خلف ظهري، لمحته بعيني بعد أن شعرت بألم الضربة، كان من الفئة المتعصّبة، أدركت أنّ اسمي في الحمّام قد انتشر سريعاً، ولا بدّ أن يكون خلف ذلك عداواتٌ جديدةٌ تجاهي، وبّخني أمام الجميع واتّهمني بالعمى، غير أنّني تصالحت مع هذه الوصمة الجديدة التي نعتني بها، وأعطيته ظهري في محاولة مني للهرب؛ لأنّني كنت أعلم بأنّه سيتحوّل إلى شيطان عندما يرى الأنظار تتّجه نحونا، وستزداد عدوانيّته عندما يلمح أيّ مقاومة منّي، ولكن يبدو أنّه ترجم طريقة تعاطيّ معه بعدم اكتراثي بقوّته.

كان أطول منّي بعشرين سنتيميتراً تقريباً ووجهه طويل، في حافّته السفلى بضع شعيرات لحية نبتت بطريقة عشوائيّة، يومها لم

يكن النموّ الكافي قد عرف طريقه إليّ؛ لأنّي كنتُ أقصر منه بكثير، واتّضح لي أنّ ميزان القوّة يرجّح كفّته فضلاً عن الأرض والجمهور.

ناداني بشيء من الغرور والغضب: يا شيعيّ، وبشكل لا إراديٍّ التفتُّ نحوه، فقبض على رقبتي ورفعني عالياً إلى أن ثبتني على الجدار، كانت قدماي تركلان الهواء، لقد تحوّلت الساحة لضحكات هيستيريّة من قبل الطلاب.

كان ينظر للطلاب مبتسماً ومستعرضاً قوّته على من لا حول له ولا قوّة، وصرخ بوجهي:

- هل لديك ما تقوله يا رافضيّ؟

لم أتغيّر كثيراً، ردّي لم يكن إلّا الصمت لتنتهيَ هذه المعاناة بأسرع وقت ممكن وأذهبَ بعيداً عن هذا المكان، فقد غدوتُ بعد تخلّي أبناء جِلدتي عنّي هدفاً سهلاً يرميه من يشاء بأقذع الشتائم، فلم يعد لنا ظهر يحمي صدورنا وبطوننا من ركلات المتعصّبين.

عندها أفلتني ووقعت على الأرض، كما لو أنّني قطعة نفاية فاضت على الحاوية ووقعت أرضاً، كانت نظرات الطلّاب تزيد من حشد الدموع المتكوّرة في عينيّ.

طال اشمئزازي من نفسي كثيراً، كانت تلك الثواني كالصواعد التي ضلّت طريقها من القمم للقيعان، فصعد من قعر أعماقي سؤال كلّفني الكثير: إلى متى سيستمرّ كلّ هذا؟

حينها تذكّرت أنّ العدالة والمساواة لم تُخلقا لأمثالي من الكائنات الحقيرة، وأنّ العدالة لمثلي لا تُوهب وإنّما تُنتزع بالقوّة، تفجّرت كلُّ نقيصة أشعر بها داخلي لتولّد قوّةً ورغبة في الانتقام، وماذا سيخسرُ من لا يمتلك شيئاً يخاف عليه؟

ركضت كما لو أنّني جنديّ في مقدّمة الجيش، وقد أُعطيت له الأوامرُ لاختراق صفوف العدوّ، قفزت عليه كالمجنون الذي لم تعد الأدويَة المهدّئة تجدي نفعاً مع حالته المرضيّة، وانهلتُ عليه بالضربات واللكمات، كنت أضرب بحقّ كلّ يوم بكيت فيه، بحقّ كلّ من استصغرني وبدّد كينونتي، بحقّ كلّ من قمعني ونظر إليّ كقذارة تمشي على الأرض، بحقّ كلّ تلك الأحلام التي أدارت لي عقبيها، وبحقّ اسمي واسم أسلافي، وبحقّ والديّ اللذين وُئِدا في القبور وهما حيان، بحقّ كلّ كلمة قالتها لي أمّي لتخبرني بأنّ القادم أجمل لكنّه لم يكن كذلك.

لم أعِ بنفسي إلّا وعدوّي تحت جسدي مغطّىً بدمائه، كنت حينها ذلك الأعمى الذي نعتني به، تدخّل الطلّاب الغاضبون لينتزعوني من فوق جسده بأقصى ما يمتلكون من قوّة، كان الطلاب يجرّونني ويمزّقون ثوبي الكتانيّ، وهم يشدّونني دون أن أتحّرك من فوقه، لم أشعر بالضربات التي أتتني من الخلف، بل لم أكن أكترث لها.

كانت أنفاسهم الغاضبة والمرتعبة تمثّل الأوكسجين الذي لم أستنشقه منذ زمن بعيد، كانت رائحة كراهيّتهم ذات نسيم عليل ملأ صدري، تدخّل المعلمون وأخذوني إلى غرفة المدير، واستدعوا الإسعاف للضحيّة التي لم تعطِ أيّ استجابة أو ردّ فعل وكأنّما سلّمت الروح، لكنّ مصيرها كان أصعبَ من الموت، فقد تسبّبتُ له بشلل شبه تامّ، مرّت الدقائق وأنا في غرفة المدير حتّى قدِم أفرادُ الشرطة واقتادوني إلى المركز.

المنافقون في الدرك الأسفل

الفتاة تروي

وفي إحدى الليالي التي كان يُراد لها أن تكون ليلة خالدة من ليالي الهضبة الجنوبيّة أُقيم الصيوان الخاصّ بالأعراس وتمّت دعوة جميع أعيان الهضبة إلا المخالفين والعاصين منهم.

الرئيس الأعلى محبوب الناس الأوحد في مقدّمة المستضيفين، يتّضح للجميع أنّ صحّته ليست مستقرّة، ولكنّ تلك الحفاوة تدفعه لأن يبقى ثابتاً كنخلة معمّرة تأبى السقوط، وممّا ساعده في ذلك تحوّلُ الناس في تلك اللحظة من ضيوف إلى مستضيفين فلم يكن في الحقيقة هناك ضيوفٌ، لبس الرئيس ثوبه المذيّل، وربط رأسه بالعمامة البيضاء كالأسلاف، وفي حَقوه لبس السلاح الشعبيّ، كان ينظر لهذه الجموع المقبلة والمدبرة بتأمّل شديد، ولعلّ أسئلةً كثيرة تدور في نفسه ومنها: هل نحن على ما يُرام؟ لماذا ذمّ الأوّلون الجماعة؟ وقلّلوا من قدر الكثرة، وحذّروا من

التعصّب؟ إذا لم تكن هذه الأشياء دليلَ النعيم والاستقرار، فما الذي يدلّ على ذلك؟

كانت العروض الشعبيّة لا تتوقّف، كلّما رفع الرئيس الأعلى يده ليهزّها يميناً وشمالاً كانت عزائم الرجال تزداد لإشعال المحفل، كانت ليلةً صاخبةً لم تعرفها الهضبة الجنوبيّة منذ وُجدت.

أما أنا فقد وعيت دوري جيّداً، وفهمتُ ما يُراد منّي وتحوّلتُ من يومها إلى جثّة هامدة لا حول لها ولا قوّة؛ يسوقها الناس دون أن تعرف مصيرها.

في المحفل النسائيّ لم تتوقّف النساء عن ترتيل التبريكات والتهليلات والأناشيد، شاهدتُ وجوهاً أكثر بعشرة أضعاف من الوجوه التي شاهدتها في حياتي كلّها.

أمّا لحظة انفراده بي فكانت من أكثر اللحظات غرابةً وفتكاً على الإطلاق، كنت أتخيّله من حديث أبي عنه وما يظهر من أفعاله أنّه ضخمٌ، وصاحبُ وجه قبيح ولكنّه ظهر لي بعكس ذلك، فهو يكبرني بنحو عشرين سنةً، كثّ اللحية ولكنّها منظّمةٌ، ومنفصلة بشكل مرتّب وكان جسمه ممتلئاً ولكنّه منتفخ البطن وكان هذا في منظور أهل المدينة من علامات الراحة والاستقرار، ويلبس رداءً أبيض ذا قطن كشميريّ، وفي خنصره خاتمٌ من العقيق الخالص،

وكانت عيناه حادّتين لا يُعرف ماذا تخفيان خلفهما، كنت ألمح وجهه من خلف الغطاء الملوّن.

لم أرفعِ الأغطيةَ التي تُوضع على وجه العروس، فوجودها لم يكن يحجب الرؤية، حيث كنت أرى من خلال الفتحات الصغيرة، وكانت رائحة أعواد الأخشاب الكمبوديّة التي يحرقونها تفوح منها رائحة زكيّة لطالما أحببتها.

منذ اقتحامه لداري التي وُضعت فيها وأنا أجمع يديّ في حضني بقدر ما استطعت لأحتمي ممّا سيحدث منه، كنت قد عرفت في وقت سابق أنّه متقلّب المزاج، لكنّه يبدو مبتسماً لهذه الغنيمة التي قُدّمت له على طبق من ذهب.

ظلّ طوال الليل يحاول أن يختلق الأحاديث معي بلهجته القادمة من جنوب الجبال، وكان حيائي يمنع الهواء الذي يندفع من صدري لأتجاوب معه، وبعد أن رفع الأغطية عن وجهي الجذّاب راح يمتدحني ويشيد بجمالي الخلّاب، بينما كنت أرتجف من الخوف ممّا سمعته منه ومن هذه الليلة العجيبة، فلم أشاهد فرحة صاخبة كهذه، نظر لوجهي وأخذ يطيل النظر فيه بغية أن أضع عينيَّ مواجهتين لعينيه، ولكنّني كنت أعرف أنّه ينتظر هذه اللحظة التي لم أكن لأجعلها تتحقّق له بهذه السرعة، لقد منعتني نفسي من إعطائه ما يريد؛ فقد كنت أتلذّذ بذلك.

وبعد مرور أكثر من ساعة دون استجابة منّي لمحاولاته قرّر أن يدخل في الموضوع بكلّ جديّة، فشعر أنّ كلّ ما يريد تحقيقه قد انقلب في تلك اللحظات، وهو لم يتعوّد على مثل هذه اللعبة، فنهض واقفاً وأطفأ نور الغرفة، ورفع ملابسي البيضاء عالياً، طرحني على السرير، كنت قد عرفت أنّ صبره قد نفد تجاهي.

قاومت بكلّ ما فيّ وبعد ثوانٍ من انقضاضه، نطقت بعدها وكان هذا أول نطقي لأحاول إبعاده عنّي ولأشرح له أنّي ضيفته في اليوم الأوّل ويجب ألّا يفعل بي ذلك، ولكنّ محاولتي لإيقاف جموحه باءت بالفشل، يبدو أنّ وجهي الذي سارت عليه أنهارٌ من الدموع قد أثار غريزته أكثر، ثمّ استبدل بأحاديث الحبّ تمتماته الدينيّة مع كل حركة يقوم بها وكأنّه في جهاد أو حرب طاحنة لا عودة منها، استسلمتُ مع أوّل لحظة في عراك سريريّ كنت فيه الطرف الخاسر وبلا أدنى مقاومة.

لم تداهمني اللحظات الشهوانيّة اللذيذة التي حدثوني عن جمالها وطعمها، فكلّ ما حدث عوضاً عنها كان التفكير في المجهول والظلام وهذا العالم الجديد الذي لم أعرفه من قبل.

كنت مع كلّ نفس ينفثه على وجهي المتّجه للأعلى أشعر بانكسار روحي وكبريائي، وهو فوقي أشبه ببحّار كبير الجثّة يجدّف على زورق صغير للنجاة.

لم أكن أتلذّذ ولا أشعر بما يُقال عن الجماع والنشوة، واستبدلت بكلّ ذلك تساؤلات نفعيّة أكثر جديّة من الذي يفعله فيّ هذا الكائنُ.

فهل سيعوّضني المالُ والوجاهة لذّتي وأنوثتي إن لم يستطع هذا الرجل تقديمهما لي؟ وهل ستتخلّى روحي عن عبارات الحبّ والشغف التي تنتظرها بتمتمات دينيّة كهذه التي يتلوها على مسامعي بعد كلّ حركة يقوم بها على جسدي؟ كيف له أن يرضيَ طمع امرأة تعتزّ بأنوثتها وجمالها بهذه الأشياء التي يفعلها.

ليس كلّ امرأة ورجل يسكنان حجرة واحدة أزواجاً، حتّى لو كان الدين يمنحهما تلك التسمية، وليس صحيحاً أنّ من فاتها قطار العمر هي التي لم تتزوّج، بل إنّ التي لم تتمتّع بلذّة الجنس مع زوجها، ولم تطرب بأحاديث الحبّ والغزل لم يفتها قطارٌ واحد، بل فاتتها كلّ قطارات العمر التي مرّت بجانبها وذهبت بعيداً، وكلّ يوم من عمرها هو ضياع لا يعود.

فرغ من حاجته منّي التي دفع من أجلها المال الكثير، ثم ذهب بعد ذلك للنوم في الغرفة المجاورة؛ كما يُفهم من الأعراف الدينيّة التي لا تقبل أن ينام الزوجان في سرير واحد بحجّة أنّ ذلك منافٍ لطهر الإنسان.

في الغد لم يكترث لما قام به، عاود إكمال يومه في الصباح وكأنّه لم يكن عريس البارحة، وأمر النسوة بأن يدخلن ليجهّزنني لغداء ذلك اليوم.

لم يعطني ردّة الفعل المناسبة؛ فلم أتعرّف عليه ولم يحدّثني كثيراً، بل ترك ذلك للأيّام. وكأنّ هذا القدر منحني ما يكفيني في ليلتي الأولى وبالنسبة له لم يكن هذا مهمّاً لأنّه سبق له الزواج مرّتين، كان عادلاً في البؤس الذي منحني إيّاه كاملاً، دخلت زوجتاه الأولى والثانية إلى غرفتي صاغرتَينِ تنظرانِ إليّ بشفقة، كانت أعينهما تخبرني بأنّني قدِمت إلى المكان الخاطئ، ونظراتهما تقول: أهلاً بك في الجحيم.

كان يقضي على أفكاري بالصراخ والتوبيخ، ونظراته تجعلني أجهش بالبكاء، حتّى جعلني أشعر بالندم لأنّني لم أتمرّد على والدي ولو اضطرني ذلك إلى الهرب من الهضبة كلّها.

قاومت كثيراً لأتقبّل العيش في هذا القصر العامر الذي لم يكن من الداخل سوى كهف هجرته البشريّةُ منذ مئات السنين، ولكنّني عشتُ رغم ذلك، وبعد ستّة أشهر تمّ إعلان حملي، كنت مستاءةً من هذه السرعة، رُزقت بابني الأوّل الذي سمّاه أبوه باسم الرئيس الأعلى، وبعد أشهر من ولادتي قرّر ابن الرئيس أن يتزوّج من عائلة

أخرى، ليكمل حقّه الشرعيّ الكامل بالزواج من الرابعة، تنازلتُ عن كلّ قناعاتي وقرّرت أن أواكب العيش مع ظروفي لعلّ هذه الحياة تبتسم لي في قادم الأيّام مع ولدي الجديد الذي كان يمثّل أملي القادم.

سبع سنوات مرّت على زواجي من رجل لم أحبّه من الليلة الأولى؛ فقد تسبّب في موت أبي قهراً، وبسببه رحل أخي عن الهضبة إلى المدينة، وازداد بغضي له عندما شاهدت وسمعت ما يفعله في الناس، لقد كان يؤلّب الناس بعضهم على بعض باسم الدين، ويطلق أحكاماً كيفما يشاء لتتكيّف مع إرادته، كان بيتنا لا يهدأ ممّن يستضيفهم ويتحدّث إليهم باسم أبيه المريض والطاعن في السن، كان يرفض الدخول لحلّ القضايا التي يكون طرفاً فيها أناسٌ مشكوك في ولايتهم لأبيه، بينما كان لا يتأخّر في حلّ القضايا التي كانت تخصّ أتباعه، كان بهذه الطريقة يكسب المزيد من الوجاهة والسلطة والمال، إلى أن كوّن قاعدة من الجماهير الطائعة له باسم والده.

كان يريد تغيير أشياءَ لا حصر لها في الهضبة، يرفع أناساً من القاع للأعلى، ويسقط وجهاء الهضبة للقيعان؛ لكيلا يكونوا خطراً عليه في يومٍ ما، وظلّ يشحن الناس بلا كلل ولا ملل، وتحت حماية من معاونيه المتعصّبين.

وفي يومٍ من تلك الأيَّام التعيسة دقّت على بابنا امرأة شاحبة الوجه ورمت بنفسها أمام بيتنا وهي تنتحب وتبكي وتصرخ، لم أسمع صراخاً كهذا من قبل، لقد خُيّل إلي أنّ الجبال من حولنا اهتّزت لحزن هذه المرأة، وكم كانت المفاجأة كبيرة حينما عرفت أنّ تلك المرأة هي زوجة أخي الأكبر التي غيّرها الهمّ، واستبدل بصحّتها نحولًا وسعادتها شقاءً، فأدخلتها على الرغم من أنّ أهل زوجي كانوا يرفضون إدخال الغرباء إلّا في أوقات محدّدة وخاصّة بالزيارة، هدّأت من روعها لأفهم ما حدث معها.

إنّها قادمة من المدينة البعيدة وحيدةً لتطلب مساعدة الرئيس الأعلى بشأن ابنها بعد أن روت لي تفاصيل قصّتها المؤلمة عن ابنها الذي لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره حين دخل السجن بعد مشاجرته مع أحد الطلبة في مدرسته بسبب مضايقتهم له بالعبارات الطائفيّة، وقد طلب أهل الطالب الاقتصاص من ابن أخي المسكين؛ بعد العاهة الدائمة التي أسفر عنها الشجارُ، ظلّت زوجة أخي ترجوني أن أقنع زوجي بتوسّط الرئيس الأعلى لدى أهل الطالب الذي تسبّب له ولدها بعاهة دائمة، وكانت خلال ذلك ترتجف من شدّة التوتر دون توقّف.

لا علم لي بالطريقة الصحيحة التي سأتصرّف بها لأنتشل هذه المرأة ممّا هي فيه، لأوّل مرّة أشعر بأنّ الوجاهة التي وُضعت فيها

يمكن أن تساعد أحداً ما، ولكن سحقاً لتلك الوجاهة، ألم يكن قدرُ ابن أخي نتيجةً لها؟

بعد أن قدم زوجي في المساء فاتحتُه في الأمر، غضب وصرخ في وجهي كالعادة ولكن بشكل أشدّ من كلّ مرّة، وبّخني بسبب فتحي الباب للناس بغير إذنه، فهو من يحدّد الأشخاص الذين يحقّ لهم أن يزوروا ويقدّموا ما لديهم، خصوصاً وأنّ زوجة أخي من المخالفين والعاصين، فهو لن يُظهر لهم أيّ شفقة، وليس لهم عنده عهدٌ، وهو لن يُغامر بوضع وجاهة الرئيس الأعلى في خدمة قضيّتهم مهما كانت.

صرخت في وجهه لأوّل مرّة في حياتي، وقلت له: إنّ ابن أخي عانى من أجل اسم عائلته وطائفته التي تنتمي لها أنت ورئيسك الأعلى، ومن أجل هذا المذهب الذي يعتلي أبوك سُدّته وقبل ذلك فهو من لحمي ودمي، بيد أنّه لم يردَّ عليّ في حينها وأعطاني ظهره وكأنّ الأمر لا يعنيه أبداً.

لم أتوقّف عن المحاولة فلقد أدخلت أناساً في هذا الموضوع لأغيّر رأي زوجي الرافض، ولكنّه كان يبادرهم بقوله: إنّ الدين هو الطاعةُ ولا تساهل مع المخالفين مهما حدث.

زارتني زوجة أخي مرّة أخرى وأخبرتها بأنّ زوجي رفض كلّ محاولاتي، ولكنّني اقترحت عليها أن تذهب هي وأخي للرئيس

وابنه لإعلان الولاء والتوبة للرئيس الأعلى؛ لأنّ زوجي قد لمّح أمامي بتلك الرغبة بل لنقلِ الشرط الذي يريده ثمناً لتدخّله في الأمر، وكنتُ أشاهد اندفاعه لمساعدة أتباعه، فوجدتُ في ذلك طريقاً يُمهّد لإيجاد حلّ لقضيّة ابن أخي، فوافقت زوجة أخي على ما قلت.

بعد أيّام دخل عليّ زوجي وهو في غاية السعادة ممّا رآه، وقال لي: إنّ العصاة أتَوا تائبين ممّا أقدموا عليه وأعلنوا ولاءهم وعودتهم لطاعة أولي الأمر، كما قد تبرّؤوا من والدك الذي تُوفّي وهو يقف في صفّ أعداء الرئيس.

أخبرني تفاصيل ما حدث في المسجد الكبير وهو في غاية السعادة، وقال بأنّ أخي تقدّم بعد أن فرغ الرئيس من صلاته بالمصلّين جماعةً، ورفع يديه عالياً، لقد كان شكله مريباً وهيئته رثّةً للغاية وأعلن توبته ممّا فعل وتبرّأ من أبيه كذلك الذي مات على ذنوب المخالفة والعصيان، كما طلب الصفح والمغفرة من الله ومن الرئيس قبل كلّ شيء.

لقد آلمني ما قاله لكنّني فرحت بكون ذلك سيخلّص ابن أخي من محنته فما قاله أخي من كلام سيبقى في إطار فعلِ ما هو مُتاح من أجل حريّة ابنه، فقلتُ له:

- وكيف كان ردّ الرئيس الأعلى؟
- لم يردَّ عليه.
- فمن المؤكّد أنّك ستسعى في موضوعه؟
- ضحك من كلّ قلبه، وقال: أنا لا أتعامل مع المنافقين فلم تكن توبتهم إلّا من أجل ابنهم المذنب، ولو لم يتعرّضوا لهذه المُعضلة لباتوا كالشوكة في خاصرتنا، غير أنّ المنافقين في الدرك الأسفل من النار.

كنت أرى أمامي أفظع وأبشع إنسان عرفته في حياتي، حثالةً لم أرَ لها مثيلاً وما زاد صعوبة الأمر عليّ أنّني كنتُ شريكته في ذلك حينما أقنعتُ زوجة أخي بما يريده لقاء مساعدتهم.

على الرغم ممّا تعرّضت له من مآسٍ إلّا أنّني لم أحزن كما حزنت هذه المرّة؛ فقد شاهدتُه يتلذّذ بإذلال هذه العائلة ومن ثمّ قرّر التخلّي عنها في لمح البصر دون أدنى اكتراث بأوجاعهم ومصائبهم التي كنّا أحد أسبابها بطريقة أو بأخرى.

أنظر لوجه هذا الزوج الضالّ وأتساءل عن كيفيّة استخدام الدين من أجل تنفيذ مطامع شخصيّة، لماذا لم يهذّبه دينه وهو من أسرة دينيّة؟ هل حوّل عصرنا هذا الدين إلى غطاء نستخدمه، ونمرّر من خلاله أهدافنا وغاياتنا؟! وكيف يعيش أناس منّا وبيننا ومن

جلدتنا نفسها ونكون سبب بؤسهم ومعاناتهم وتدميرهم دون أن نقف معهم أو نُوليهم أيّ قدر يُذكر؟!

لماذا عندما ينال الإنسان الوجاهة والمنصب لا يتأخّر في تدمير الآخرين وتحويل حياتهم إلى بؤس لا ينتهي؟! أليس هذا الزوج هو سبب ابتعادي عن عائلتي وحياتي الطفوليّة؟ أليس هو نفسه الشخص الذي دمّر عائلة أخي مرّتين؛ مرّة عندما تسبّب برحيلهم، ومرّة في إذلالهم وتركهم لمصيرهم وجعل الناس يقطعون علاقتهم بهم في موقف لا يحتاج منه إلّا الوقوف معهم، لا أن يتخلّى عنهم باسم الدين.

كان ابن الرئيس يدخل مُستخدماً اسم الرئيس الأعلى في قضايا جنائيّة كالمخدرات وجرائم القتل من أجل قضايا الشرف أو العار؛ لأنّ أصحابها من أتباعه، وكان يحلّها بدفع تكاليف العفو على شكل ديَة ماديّة، أمّا ابن أخي في المدينة البعيدة فكان يعتقد أنّ قضيّته ستكلّفه الكثير ولن تزيد من وجاهته شيئاً يُذكر، وبرأيه أنّ هؤلاء لا يستحقّون السعي باسم الرئيس الأعلى، حيث قال ابن الرئيس للموالين الخاصّين به: إنّ هذه العائلة منافقة وابنهم أخطأ بتهوّره، لذا لا يجب التعاطف معها، وبدورهم هم نشروا وصمة العائلة الجديدة التي تحوّلت من العصاة المخالفين إلى المنافقين.

بعد ستّة أشهر قرّرت المحكمة سجن ابن أخي في المدينة البعيدة أربعة عشر عاماً حيث سيقضي سنة منها في مركز رعاية الأحداث حتّى يبلغ السنّ القانونيّ وسيكمل البقيّة في سجن المدينة البعيدة الكبير.

أمّا عائلة أخي فقد تمزّقت، فأُصيبت زوجة أخي بحالة اكتئاب شديدة حجبتها عن الناس، وحاول أخي جاهداً معالجتها لكنّ ذلك لم يُجدِ نفعاً، وعندها قرّر أن يبعدها عن كلّ الأماكن التي عرفت فيها البؤس والشقاء فرحل بها إلى مكان غير معروف خارج الحدود، ولم يعد يعرف أحدٌ أين ذهبا بعد ذلك.

أبي ومن خلفه أنا والطوفان

الفتى يروي..

بعد سبع سنوات من سجني تصاعد التوتّر بين المتعصّبين والعصاة في الهضبة، واتّخذت الأمور في طريقها منحىً خطِراً ووعراً للغاية إلى أن انتهى الأمر بهذا الحدث المأسويّ: ففي جريمة مُنظّمة رصد أحد المتعصّبين رجلاً من كبار الطرف الآخر وهو ذاهب إلى بيته بعد صلاة الظهر، وأطلق عليه ثلاث رصاصات أردته طريحاً أمام الباب العلا للمسجد الكبير، رأى المتعصّب الضحيّة غارقة بدمائها فاعتقد أنّه مات، لكنّ الرصاصة اخترقت جسد الرجل ولم تقتلْه كما أراد المتعصّب.

كان يعتقد المعتدي أنّ ما فعله سيلقى من خلاله القبول من الرئيس الأعلى وسينال الجنّة، غير أن الرئيس وابنه أسرعا بالإعلان عن عدم مسؤوليّتهما عمّا قام به المتعصّب، فرُميَ في السجن ليقضيَ ثلاث سنوات من عمره خلف القضبان.

في إحدى قرى القارّة الهنديّة، هناك يوم يتذكّر فيه أهل القرية قرداً كان قد ضحّى بنفسه لإنقاذ حياة طفل كما أنّه نبّه القرية من فيضان مُهلك قادم، فأقامت القرية له تخليداً لذكراه تمثالاً كبيراً على مدخل القرية، وتمّ تحديد يوم سنويّ لإقامة الاحتفالات لروح هذا القرد الذي ضحّى بنفسه من أجل حياة الناس، تمنّيت لو أنّ مجلس الهضبة الذي لم يكن يجتمع إلّا في قضايا تحجيم دور المرأة أن يقرّر وضع نُصب تذكاريّ على شكل رصاصة تخترق جسداً ما تخليداً لما قام به المعتدي من فعلٍ جميل وفضلٍ كبير أدّى لتغيير مجرى الأحداث.

لقد أطلقت هذه الطلقة الشرارة في نفوس الناس الغافلين ونبّهتهم إلى ظلم ابن الرئيس، وسرت تلك الشرارة كالنار في الهشيم، فقد بدأت الأحداث بتظاهر الناس أمام منزل الرئيس الأعلى، ووصلت هتافاتهم واحتجاجاتهم رغماً عن الابن إلى مسامع الأب، وأطلق بعض المتعصّبين عيارات ناريّة فوق رؤوس المتظاهرين بغاية تفريقهم، لكنّ ذلك لم يفتَّ في عضدهم بل زادهم إصراراً على حسم المواجهة حتّى النهاية، ولم يُهدّئ من غضب الناس سوى خروج الرئيس الأعلى الذي طلب منهم فضّ الاعتصام، ومن ثمّ الاجتماع بوجهاء الهضبة داخل المسجد، وقد لمّح الرئيس إلى نيّته تغيير واقع الحال نحو الأفضل.

فهذه القطعة المعدنيّة المليئة بالبارود والتي لا يتجاوز طولها سنتمترين ونصف السنتمتر صنعت لتشقّ الهواء وتُردي من يقف أمامها، كانت قد فعلت ما لم يفعله أيّ بشريّ آخر في هذه المدينة.

لقد أعادت للرئيس الأعلى رشده وصوابه فتنبّه لما وصل إليه أبناء طائفته ومدينته من انشقاقٍ وتناحر بعضهم تجاه بعض، فحادثة الرصاصة قد دقّت ناقوس الخطر لديه بعد سنوات طويلة من الغفلة صوّرت له أنّ الأوضاع مُبشّرةٌ، لقد أدرك الرئيس الأعلى أنّ حبّه ابنه ووثوقه به قد أعميا بصيرته، فكان ذلك هو الطريق لأن تغرق الهضبة في حمّامات دمٍ لا يعلم إلّا الله كيفيّةَ النجاة منها؟

وبعد انتهاء الاجتماع في صحن المسجد عقد الرئيس اجتماعاً مُصغّراً في إحدى الغرف، وكان الرئيس ما يزال يحظى بمحبّة الناس، والجميع يدركون سوء الوضع الصحي للرئيس الذي سمح لولده بالتفرّد والظلم، وبعد نقاشات صريحة ومطوّلة وافق الرئيس أن يقوم بإيقاف ولده وأن يضع حدّاً لتصرّفاته، ولقي هذا الامر ارتياحاً لدى المجتمعين خصوصاً بعد أن أعلن الرئيس تحمّله المسؤوليّة وقدّم اعتذاره عمّا حدث.

وفي تلك الجلسة قام الرئيس بإبعاد ولده الذي رفض في بداية الأمر إلّا أنّه خضع في النهاية، وتقرّر في ذلك اليوم أن يصبح حفيد

الرئيس ابن عمّتي نائباً له على أن يكون الرئيس وصيّاً عليه ريثما يبلغ سنّ الرشد، وقد رأى الناس في ذلك مدخلاً لحلّ مناسب فهم لا يريدون أن يتمرّدوا على تقاليدهم، فما زال الرئيس يمثّل في نظرهم شخصيّة ورعة متديّنة، وبهذا تبقى الرئاسة في بيتها ولا يصبح هناك فراغٌ يسبّب لهم المشكلات، إضافة لأنّ عائلة جدّي كان لها حضورٌ مميّز في الهضبة إضافة لكونها اعتزلت هذا الصراع منذ البداية، وبهذا يكون الناس قد اجترحوا حلًّا مناسباً يُرضي الطرفين وقابلاً للتطبيق، وأعلن الرئيس مسؤوليّته بالإشراف على تعليم حفيده أصول الدين وتعليماته.

وفي يوم مطريّ أصدر الرئيس مرسوماً عامّاً يقضي بالعفو والصفح وبفتح صفحة جديدة لأبناء طائفته دون استثناء، لكنّ الرئيس لم يعش طويلاً بعد أن كان طريح الفراش يصارع برغم كبرِ سنِّه همومَ الهضبة وتأنيبَ الضمير عمّا غفل عنه وكان سبباً في بؤس الكثير.

مات الرئيس بعد خمس سنوات من هذا العفو، وهو يناهز عِقده العاشر من العمر، وشيّعتْ جثمانَه حشودٌ من الناس الذين أغلقوا طرقات الهضبة الجنوبيّة ومسالكها من تعدادهم الذي تجاوز الخمسين ألفاً.

لقد مات الرئيس الأعلى بعد سنوات طويلة أحبّه الناس فيها لتواضعه وفعله الخير وقيامه بإمامة الناس كلّ تلك السنوات، وعلى الرغم من أنّ الهضبة دخلت في عهده نفقاً مظلماً سحيقاً، وشهد الجميع دماراً وتفكّكاً أسريّاً وضغائن تحتاج لسنين ضوئيّة عديدة حتى تُزيلها من قلوب الناس، لكنّ الناس نسُوا كلّ ما قام به وبقيَ في ذاكرتهم كلّ أفعاله الحسنة.

كنت أنا وعائلتي إحدى ضحايا هذه الفترة المؤلمة، وبعد نهاية الحقبة ظهرت قصصٌ كثيرة لعائلات تمّ إقصاؤها والعبثُ بحقوقها، كما وتمّ إرغامُ الرجال على تطليق زوجاتهم بذريعة أنّ الولاء للرئيس يطلب من الرجل التضحية بحياته حتّى لو نتج عن ذلك تفكّك الأسرة وضياع الأبناء، وأكثر الناس كانوا يفضّلون السكوتَ على أن يواجهوا التيار الجارف الذي لا يعرف الرحمة ولا الشفقة، وبعض الناس اختار عدم المجاهرة برأيه لكيلا يعرف الناس معارضته التي قد تُكلّفه انقطاع نصيب بناته من الزواج، أمّا البعض الآخر فكان سكوته من أجل ألّا تتأثرَ تجارتُه وأرزاقُه، وآخر مجموعة كانت تحبّذ السكوت من أجل مصالحها الشخصيّة مع زمرة الابن ومن معه.

أمّا ابن الرئيس فلم يعد يُرى في المشهد بعد أن وجد نفسه مهمّشاً بين ليلة وضحاها، فبعد أشهر من وفاة والده قام باختراع تمثيليّة

تقول بأنّه مستهدفٌ من قبل أعدائه، ومثّل دور المصاب بطلق ناريّ وهذه التمثيليّة أعطته عذراً بعدم الوجود في الهضبة الجنوبيّة مرة أخرى لدواعٍ علاجيّةٍ، لقد شاهد بأمّ عينه كيف أنّ المقرّبين منه قد تخلّوا عنه وانقلبوا ضدّه وصاروا يطلقون ضدّه الاتّهامات.

كان الناس قد أدركوا أنّ أيّام أبيه قد انتهت وولّت لذلك ذمّه الكثير بسبب ما كسبه من أموال طائلة في حياة أبيه، وكانت القصص تتحدّث عن تعمّده تدمير الهضبة والعبث بها، وصار الناس يسترجعون أقواله وأفعاله ويحاكمونه من أجلها على الرغم من أنّ أغلبيتهم كانوا يوافقونه في كلّ آرائه ويطبّقونها بحذافيرها بحجّة أنّها تمثّل التمسّك بالقيم العُليا للدين، وهو كان الممثّلَ لوالده والمتحدّثَ باسمه.

وكان هذا آخرَ عهدٍ للناس بابن الرئيس فقد اختفى من الهضبة وانطوت صفحته إلى الأبد.

لكن يبدو أنّ قصّة جديدة في طريقها للكتابة؛ قصّةَ الرئيس الجديد ابن عمّتي الذي أمسى رئيساً للطائفة وهو لم يبلغ سنّ الرشد سوى منذ أشهر قليلة، فقد مات الرئيس واختفى ابنه وبدأ عهدٌ جديدٌ لرئيس جديد، وابن رئيس جديد وعادت الدائرة في دورانها ولكن بطريقة أخرى.

بموت الرئيس واختفاء ابنه وتعيين رئيس جديد تغيّر كلّ شيء، ولكنّ الأفكار التي زُرِعتْ ما زالت حيّة فهي لم تمت، ومع مرور الوقت والأزمنة اتّضح أنّ الناس لم يعُوا الدرس جيداً، فكلّ ما فعلتْه تلك الأفكارُ هو أنّها ذهبت لأحد الكهوف لتستتر برهةً من الزمن إلى حين قدوم رجل دين جديد ليبثّها من جديد على العامّة، وتدخل الهضبة في نفقٍ مظلمٍ آخر.

أمّا أنا فما زلت في سجني قابعاً بين جدران الزنزانة أقضي ما تبقّى من عقوبة على ما سبّبته لذلك المتعصّب.

عرض أبي كلّ ما يملك وما يملك جدّي لأهل الطالب الذي ضربتُه من أجل العفو عنّي ولكنّهم رفضوا، وكانت دواعي رفضهم أنّي كائنٌ متوحشٌ ولا أنتمي لهذه الحياة، لقد كان أهلُ الفتى أوفياءَ لابنهم الذي سيقضي بقيّة حياته مُلقىً على السرير، فلم يحيدوا أو يغيّروا من رأيهم، كانوا مثله تماماً يرون أنّني لا أستحقّ الحياة فأنا للأسف شيعيّ.

كان وقوف أبي أمام بابهم إثارةً لغضبهم ومدعاةً للصراخ بأعلى ما لديهم، كان يُخيّل لهم أنّ إبليس الخارج من جنّة الله هو نفسه الذي يقف أمام باب بيتهم يطلب منهم الصفح، وهذا كان أمراً يزيدهم عناداً وتصميماً على أن يرَوا الشرع يقتصّ من رأسي الصغير.

أمّا أبي المسكين فلم يترك باباً لأيّ شيخ قبليّ أو دينيّ في المدينة العالية أو في الهضبة إلا ودقّه ورجا من أهله المساعدة، لكنّه خُذل في نهاية الأمر.

وفي نهاية الأمر قال القضاء كلمته الفصل والنهائيّة بعد العديد من جلسات الاستماع والشهود، وقرّر أن يحكمني بالسجن مدّة أربعة عشر عاماً، كوني حدثاً لم أبلغ السنّ القانونيّة، وأنّ ضربي له لم يكن بنيّة مُبيَّتة، كان الفرج قد أتى على هيئة سجن بعد معارضة أهل القتيل لوقت طويل هذا القرار.

أدرك أبي أنّ كلّ ما لقّنني إيّاه لم يكن محضَ وهم من أوهام الإنسان القديمة، كتلك الأشياء المتعلّقة بالنسب والبطولات وأحاديث الفخر وكلّ ما يعزّز غريزة البقاء لديه في تلك الأزمنة.

أدرك أنّ ما كان يقوله لي لم يكن تعليماً إنّما كان أعباءً لا طائل منها، لم أرَ أبي يخوض عذاباته ولكنّي أدركت أنّ الحياة لم تكن تستحقّ أن تُعاش بالنسبة له بعد كلّ تلك الأحداث التي جعلت أمّي في حال قاسية لا يمكن احتمالها، فقرّر اصطحابها بعيداً عن كلّ شيء، وفي صباح يوم غير معلوم لي رحل بعيداً، رحل إلى الأبد.

قرّر أن يسافر ويترك البلد لعلّه يجدُ مكاناً ليبدأ فيه كغريب جديد، لقد عرف في وقت متأخّر أنّه لم يعد يمثّلُ الشقاء لنفسه فقط

بل حتّى لعائلته التي لم يستطع أن يقدّم لها شيئاً، وكان يراها كلّ يوم تتلاشى أمام ناظريه.

كانت المسألة بالنسبة له تتعلّق بكونه مسؤولاً عن العائلة وحمايتها وتعليمها لأنّه الرجل، وما أن يفشل فيها جميعاً حتى ينتقل لخانة غيرِ مُكتملي الرجولة، لقد تعلّم أبي من جدّي أنّ الرجولة تكون متكاملةَ الأركان وإلّا لم تكن.

لم يترك لي أبي أيّ رسالة أو توضيح، ولم يخبرني بذلك عند زيارته الأخيرة لي في سنتي الرابعة في السجن وعندما رحل كان يعلم بأنّني سأعذره وأتقبّل سبب رحيله.

رحل أبي عنّي وتركني أنا والطوفان خلفه، لم يُرِد أبي أن أراه مكسور الجناحين، أو أن يزلّ لساني في لحظة غضب أخرى، وأذكّره بكلّ تلك الخيبات، لقد حقّ لأبي الرحيل وحقّ لي أن أقدّر هذا الرحيل.

فشلت عائلتي أيّما فشل، فأمّي حبيبة قلبي وروحي قد ذهبت ضحيّة حزنها عليّ، وكانت الأمراض الخطيرة قد عرفت الطريق إليها بعد أن يئستْ من الإفراج عنّي.

خسرت السيطرة على نفسها ريثما أعود إليها من عمري الجديد الذي أعيشه بعيداً عنها، كانت تراني صغيراً لا يقوى جسدي الهزيل

على أن يواجه كلّ تلك العقبات، أصغر من أن أوذيَ كائناً غير مرئيّ فكيف بقتل إنسان.

لطالما أحببتها عمري كلّه، لم يسبق أن مرّ عليّ يوم دون أن أرى وجهها أو أن تقرّ بها عيني أو أن أحتضنها، ظلّت تعتقد أنّني سأبقى معها طويلاً لكنّني وفي لحظة رحلتُ عنها دون رجعة، لقد خذلتُها، ففي لحظة طائشة غبتُ عنها.

لقد كنت أقول للمساجين الصغار في عمري: إيّاكم أن تحبّوا أمّهاتكم كما أحببتُ أمّي، غير أن أمهّاتهم كنّ أكثر وعياً من أمّي، لقد رمتهم أمهاتهم في الشارع ليس كرهاً كما كان يقول والداي، بل لأنّهن كنَّ يردن منهم أن يواجهوا الحياة منذ نعومة أظفارهم، وعند العودة من العراك مع أقرانهم في الشارع، كان بيتهم يجهّزهم للمعركة الأخرى القادمة، لم تكن عائلاتهم ترضى بأن يعيش بينهم شخصٌ خاسر، وعندما ساقتهم الأقدار إلى السجن كان أهلهم يأتون لزيارتهم ليخبروهم بصوت عالٍ بألّا يحزنوا؛ فإنّها استراحة محارب.

كنت أتمنّى لو أنّني سُجنتُ في فترة مبكّرة من حياتي لأتعلّم كلّ تلك المهارات فلربّما لم أكن موجوداً في هذا المكان، غير أنّ ما قبل الطفولة لم يكن إلا العدم، ذلك العدم الذي ينضج فيه تاريخ كلّ

الأسلاف الماضين الذين تُلاحقك لعناتهم في الوجود وجغرافيا ذلك المكان الذي لا يعنيه منك شيءٌ عندما لا تخضع فيكسر بك قلب أمّك ليُعيد خلطك مع طينك وهيئتك قبل أن يقدّمك للعالم لتبدأ رحلة البؤس الجديدة.

نعم لقد كنت منبوذاً قبل وجودي في الحياة، ولأنّ الأجساد تُخلق قبل الوعي فقد كانت هذه هي النتيجة.

مدّة عقوبتي خلف القضبان كانت كافيةً لأن يطبعني السجن بطبائع هذه المدينة البعيدة، لقد صقلتني أعمدة السجن وأعاد الانتظار وندوب الحيرة تكوين شكلي وشخصيّتي، وغيّرت الأحاديثُ مع السجناء لساني وبتُّ أنطق معهم لهجة المدينة البيضاء.

أمّا هويّتي الدينيّة فقد خلعتُها منذ زيارة أبي لي في السجن بعد ما أدركت أنّه لم يقلِ الحقيقة، أوهمني أبي بأنّني لستُ وحيداً، وأنّ أبناء الهضبة الجنوبيّة يقفون بجانبي، لقد رأيت عينيْ أبي ترفّان جهة اليسار، لم يكن ينظر لعينيّ كما كان يفعل عندما يحدّثني أو يطلق لي الأوامر.

ها أنا ذا الآن يا أبي أقضي أيّامي وحيداً منزوياً، ينظر لطبعة شفته على الكوب النحاسي الصدأ الذي أخذته بعيداً حتّى أعتزل الكون ومن فيه، ابنك الآن يا أبي يُسحق تحت وطأة عقل مُنهَكٍ تماماً.

لقد كانت المذهبيّة سبباً في حياتي البائسة، هذه الحياة التي نبذني فيها الجميع دون أن يعرفوا حقيقتي أو جوهري، لم تترك لنا المذهبيّة فرصةَ أن نُظهر أخلاقنا ونحن مختلفون، بل وضعت نفسها كمندوبة للسماء وصنّفتنا وعبثت بحياتنا ثم ألقت بنا في غياهب الجبّ.

ظلّت الأسئلة عن المذهبيّة وما فعلت تدور في رأسي الصغير، كنتُ أنتظر أن يظهر لي رجلٌ حكيم من سقف السجن، حتّى يخبرني عن كلّ هذه الحيرة، وعن تفسير كلّ ذلك القلق الذي أشعرُ به.

أعلم بأنّ تلك الحياة وتلك الأسئلة كفيلةٌ بالقضاء على كوكب بأسره، إلّا أنّها فجّرت بداخلي الرغبة للمعرفة، لقد تحوّلتْ إلى شعلة من الفضول وظلّت الأسئلة تتوالد في داخلي مكوّنة أسئلة أخرى لا تنتهي.

كان الغريب ما يزال جالساً أمامي ويلقي عليّ مواعظه وفي تلك اللحظة أعدتُ فتح الرسالة التي كانت من عمّتي، وقد كتبتْ فيها أنّها ستطلب من ولدها الذي أصبح رئيساً للطائفة أن يتوسّط من أجل الإفراج عنّي بعد أن يقنع أهل الخصم بالتنازل مقابل مبلغ ماليّ ضخم يمكّن أهل الفتى الذي سبّبتُ له العجز من متابعة أموره الحياتيّة، لكنّ تلك الأسئلة تبدّدت في لحظة واحدة فانزاحت الغشاوة من أمام عينيّ، وانقشع الضباب عن طريقي،

ولم تعد بي رغبة في استعطاف أحد، ولم أعد مهتمّاً بحكيم يهبط من سقف السجن، فنهضت ومزّقت الرسالة وقلت للغريب بلهجة بطل إحدى مسرحيّات شكسبير: لن أخرج من سجني الصغير إلى سجني الكبير.

النهاية..